الفصل الثانى

١ – الموازنة بين الشماخ ، وغيره من الشعراء المجيدين فى أهم الموضوعات التى أجاد فيها

يتضح من دراستنا فى الفصل السابق أن فن الوصف قد ذهب بأكثر شعر الشماخ ، كما كان – فى جملته – أوفر فنونه حظًّا من الإجادة ، وتجلت براعته ، وتألق فنه فى وصف القوس والحمر الوحشية خاصة ، وبوصفهما طارت شهرته عبر القرون ، وأثنى عليه القدماء والمحدثون .[١]

أما شعره فى الناقة فهو – على كثرته – لا يرقى فى الجودة إلى مستوى شعره فى القوس والحمر ، كما أنه يجرى فيه – غالباً – على سنن سابقيه ومعاصريه من الشعراء كما أسلفنا [٢].

وسنحاول هنا أن نعقد موازنة بين الشماخ ، وبعض من اشتهر بوصف القوس، أو الحمر الوحشية ، أو الناقة، من سابقيه أو معاصريه من الشعراء .

القوس فى شعر أوس بن حجر والشماخ :

يقول ابن قتيبة فى آخر ترجمته لأوس بن حجر : « . . . وهو أوصف الناس للقوس ثم تبعه الشماخ »[٣] . ويعلق الخالديان[٤] على وصف أوس للقوس بقولهما : « . . وأما ذكره القوس ، ووصفه لها ، وحمل الذى قطعها نفسه على التسلق فى الجبال والهضاب العالية حتى ظفر بها بعد طول الجهد ، ثم نقله إياها من حال إلى حال حتى بلغت نهاية ما أراد، فهى صفة ما نعرف لها نظيراً فى الشعر فنأتى به ، ولقد أجاد فى كل ذلك، وأتى بما لم يتعاطه بعده أحد من الشعراء فى هذا المعنى ، من

---

(١) راجع : ص ١٩٤ ، من هذا الكتاب .

(٢) راجع دراستنا لشعره فى الناقة : ص ١٦٤ و ١٩٦ من هذا الكتاب .

(٣) الشعر والشعراء : ١٦١/١ .

(٤) هما أبو عثمان سعيد المتوفى (سنة ٣٥٠ هـ) وأبو بكر محمد بن هاشم المتوفى (سنة ٣٨٠ هـ) .

ذكر القوس خاصة ، ولو أن صفته هذه ، وما حمل نفسه من المكروه ، وعاناه من المشقة ، فى طلب جوهرة نفيسة ، أو درة خطيرة ، لكان قد استغرق فى ذلك مجهوده ، و بلغ نهاية جبلته . . »[١].

وليس من غرضنا هنا أن نعرض لكل ما قاله القدماء أو المحدثون، فى تقديم أوس فى وصفه لقوسه ، وإجادته فيه[٢] ، وإنما قصدنا بما أوردناه ، أن نبين مدى ما حظى به شعره فى القوس من الشهرة والإعجاب ، مما يوحى بأن القدماء كانوا يعدونه أستاذاً للشماخ ، ولغيره من الشعراء ، الذين عرضوا لوصف القوس فى أشعارهم من بعده .

أما نحن فنؤثر أن نحتكم إلى نص الشاعرين فى القوس ، وأن ندرس قول أوس فيها ، كما درسنا من قبل وصف الشماخ لها ، حتى يتاح لنا أن نوازن بين النصين ، وأن ننصف كلا من الشاعرين .

قال أوس[٣] :

ومبْضوُعةً من رأس فرع شَظِيَّة ... بطَوْدٍ تراه بالسحاب مجلَّلا[٤]
على ظهر صفْوَان كأَنّ متونه ... عُلِلْن بدُهن يُزلق المتنزِّلا[٥]
يطيف بها راعٍ يجشِّم نفسه ... ليُكلئَ فيها طرْفه متأَمِّلا[٦]
فلاقى امرءًا من مَيْدَعان وأَسْمَحَتْ ... قرُونَتُه باليأس منها فعجَّلا[٧]
فقال له : هل تذكرَنَّ مُخَبِّرًا ... يدل على غُنْم ويُقْصر مُعْمِلا[٨]

---

(١) الأشباه والنظائر (حماسة الخالديين) مخطوط : ١٧١ .

(٢) انظر فى ذلك – مثلا – (ديوان المعانى لأبى هلال : ٥٩/٢ والأدب العربى وتاريخه (هاشم عطية) : ١٧٧ ، والوصف (سامى الدهان – سلسلة « فنون الأدب العربى») : ٤٢ – ٤٣ .

(٣) ديوانه : ص ٨٥ – ٨٩ .

(٤) مبضوعة : مقطوعة ، وهى معطوفة على قوله فى أبيات سابقة : « أصم » المنصوب بقوله : « أعددت » فى بيت سابق . الشظية ، الفلقة والشقة . الطود : الجبل .

(٥) عللن : سقين مرة بعد مرة .

(٦) راع : حافظ ، من الرعاية . يكلئ فيها طرفه : يطيل النظر إليها .

(٧) ميدعان : حى من اليمن من أزد سراة (انظر شرح البيت فى الديوان) . قرونته : نفسه : يعنى : أنه يئس منها فلما لاقى هذا الرجل دله عليها فعجل إلى ماقال .

(٨) أى : هل تذكرن رجلا يدل على غنيمة ، ويقل العمل والعناء .

على خير ما أَبصرتَها من بضاعة ... لملتمس بيعاً بها أَو تبكُّلا (١)

فويْق جُبَيْلٍ شامخ الرأْس لم تكن ... لتبلغه حتى تكِلَّ وتَعْمَلا

فأَبصر أَلْهَاباً من الطود دونها ... ترى بين رأسَيْ كل نِيقَيْن مَهْبِلا (٢)

فأَشرط فيها نفسَه وهو مُعْصِمٌ ... وأَلقى بأَسباب له وتوكَّلا (٣)

وقد أَكلْت أَظفارَه الصخرُ كلما ... تعَايا عليه طُولُ مَرْقى توصَّلا

فما زال حتى نالها وهو مُعْصِمٌ ... على موطن لو زل عنه تفصَّلا (٤)

فأَقبل لا يرجو التى صعدت به ... ولا نفسَه إلا رجاءً مؤمَّلا

فلما نجا من ذلك الكرب لم يزل ... يُمَظِّعها ماءَ اللِّحاء لتذبُلا (٥)

فأَنحى عليها ذاتَ حدّ دَعَا لَها ... رفيقاً بأَخْذٍ بالمَدَاوِس صيقلا (٦)

على فَخِذَيْه من بُراية عودها ... شبيهُ سفى البُهمى إذا ما تفتلا

فجردها صفراء لا الطولُ عابها ... ولا قِصَرٌ أَزْرى بها فتعطَّلا (٧)

كتومٌ طلاعُ الكف لا دون ملئها ... ولا عَجْسُها عن موضع الكف أَفضلا (٨)

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها ... إذا أنبضوا عنها نئيما وأَزْمَلا (٩)

---

(١) على خير ما أبصرتها : أى : على خير ما أبصرت من بضائع الناس . التبكل : التغنم ، يقال تبكل : أى تغنم إن أراد بيعا أو غنما (انظر شرح البيت فى الديوان) .

(٢) ألهابا : جمع : لهب بكسر اللام وسكون الهاء : وهو الفرجة والهواء بين الجبلين ، وفاعل « أبصر » ضمير الرجل من ميدعان . النيق : بكسر النون : المشرف من الجبل . المهبل : المهوى والمهلك .

(٣) أشرط نفسه : المراد : أنه صمم على الوصول إليها مخاطراً بنفسه . المعصم : المتعلق : أى متعلقاً بالحبل . الأسباب : جمع سبب وهو هنا الحبل .

(٤) معصم : مشفق. تفصل . تقطع .

(٥) يمظعها : يسقيها ماء لحائها : وهو قشرها .

(٦) الرفيق : الحاذق . المداوس : المصاقل ، واحدها : مدوس : وهو الذى يصقل به .

(٧) تعطل : تترك فلا تتخذ قوساً .

(٨) الكتوم : القوس التى لا صدع فيها ولا عيب (انظر شرح البيت فى الديوان) . طلاع الكف : ملء الكف . عجسها : مقبضها ، الذى يقبضه الرامى منها وهو أغلظ موضع فيها .

(٩) تعاطوها : تناولوها . أنبضوا عنها : جذبوا وترها لتصوت . النئيم والأزمل : صوت القوس .

وإن شدّ فيها النزعُ أدبر سهمها ... إلى منتهًى من عَجْسِها ثم أقبلا (١)
فلما قضى مما يريدُ قضاءَه ... وصلَّبها حِرْصاً عليها فأطولا (٢)

وقال فى قصيدة أخرى(٣) :

وصفراءَ من نَبْعٍ كأنّ نذيرها ... إذا لم تخفّضه عن الوحش أفكَلُ (٤)
تعلّمها فى غِيلها وهى حَظْوَةٌ ... بواد به نبع طوالٌ وحِثْيَلُ (٥)
وبانٌ وظيّانٌ ورَنْفٌ وشوْحطٌ ... ألفٌّ أثيثٌ ناعم مُتَغَيِّلُ (٦)
فمظعّها حولين ماءَ لحائها ... تُعَالى على ظهر العريش وتُنزل (٧)
فملّك باللِّيط الذى تحت قشرها ... كغِرْقىءِ بيضٍ كنّهُ القَيضُ من عَلُ (٨)
وأزعجه أن قيل :شتّان ما ترى ... إليك وعُودٌ من سَرَاءٍ معطّلُ (٩)

هذه الأبيات هى كل ما ورد لأوس فى وصف القوس .

أما الأبيات الأولى ، فيتحدث فيها عن القوس مذ كانت غصناً من فرع

---

(١) يريد : إذا شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبض القوس ، ثم ابتعد عنها لقوة دفعها ، وصلابتها أى أنها مرنة مع صلابة عودها .

(٢) صلبها : يبسها . أطولا : أطال . وهذا البيت يحتاج إلى جواب ، ولعل موضعه المناسب قبل قوله : « فأنحى عليها . . » الذى روى : « أمر عليها » فيكون قوله : « أمر عليها . . . » هو الجواب .

(٣) ديوانه : ص ٩٦ — ٩٧ .

(٤) النبع : شجر تتخذ منه القسى . نذيرها : صوتها . الأفكل : الرعدة ، يعنى :أن صوتها يخيف الوحش .

(٥) يريد : أنه أبصر عودها وهو صغير مثل السهم ، فلم يزل يتعهده ، ويختلف إليه ، حتى صلح أن يتخذ منه قوس (انظر شرح البيت فى الديوان) الحثيل : من أشجار الجبال .

(٦) البان ، والظيان ، والرنف ، والشوحط : شجر من أشجار الجبال . الألف : الملتف . الأثيث : الكثيف المتشابك ، وكذلك المتغيل .

(٧) العريش : البيت ،يريد : أنها ترفع عليه ليلا ، وتنزل بالنهار خوفاً من أن تصيبها الشمس فتتشقق

(٨) ملك : شدد . أى : ترك شيئاً من قشرها عليها حتى لا يظهر قلبها ، وإلا انشقت . الليط : القشر . الغرقئ : قشر البيضة الرقيق . كنه : ستره . القيض : قشر البيضة الغليظ .

(٩) السراء : النبع . معطل : غير صالح .

شجرة ، إلى أن استوت بين يدى قاطفها قوساً جيدة الصنع ، ممدوحة الطبع ، عظيمة الغناء .

ويتناول ذلك بشيء من التفصيل ، فيذكر أنها كانت غصناً يعلو فرع شجرة استقرت فوق جبل عال ، صعب المرتقى ، لشدة ملاسته ، ألم بها رجل فأعجب بها ، ومن ثم، فهو يعلق بها بصره ، مطيلا النظر إليها متأملا تهفو نفسه إلى الوصول إليها ، ويبيئسه منها خطورة المرتقى إليها .

وبينما هو لم يزل . . . التقى برجل من أزد السراة ، فنسى أنه يئس منها ودله عليها ، وأغراه بالتماسها ، وذكر له مايتطلبه الوصول إليها من تعب ومشقة ، وتفحص الرجل الطريق إليها ، وأدرك صعوبة مرامها ، ولكنه مع ذلك صمم على طلبها ، مهما كان فى ذلك من المخاطرة بنفسه ، ولم يلبث أن شرع فى العمل ، فألقى بحباله متوكلا على الله .

وأقبل يغرس أظفاره فى الصخر ، حتى أكلتها الصخر ، ولم يزل يتحايل على بلوغها حتى نالها ، وقفل راجعاً ، حذراً مشفقاً من أن تزل قدمه فيهوى إلى حيث الهلاك المحقق .

وعاد بها بعد أن كاد يفقد الأمل فى النجاة ، وإذ ذاك أخذ يحاول إعدادها ، فتركها حتى تجف ، وتشرب ماء لحائها ، وأطال تعهدها والعناية بها ، ولما قضى من ذلك أربه شرع يسويها، ويقوم ما اعوج منها ، حتى جردها معتدلة القد ، لا يعيبها طول يزيد عن الحاجة ، ولا قصر يعطلها فيجعلها غير صالحة للرمى عنها ، قد برئت من التصدع ، وسلمت من كل عيب ، إذا أنبض الرامى فيها يُسمع لها رنين حين يزل السهم عنها ، وهى تجمع بين اللين والصلابة ، تلين إذا اشتد فيها النزع حتى يدبر سهمها إلى منتهى عجسها ، وحينئذ تحول صلابتها دون إغراق السهم .

وأما الأبيات الثانية فيتناول فيها الحديث عن القوس أيضاً ، مذ كانت نبته لينة إلى أن صارت قوساً يرعب صوتها الوحش ، ولكن حديثه هنا مقتضب ، يتجاوز عن كثير من التفاصيل ،التى عرض لها فى أبياته الأولى ، فهو يصورها هنا نبتة لينة ، فى أصل شجرة نبع تحيط بها — فى واد — أشجار كثيفة متشابكة الأغصان ،

أبصرها رجل ، فأخذ يتعهدها ويتردد عليها حتى غدت صالحة لأن يتخذ منها قوس.

وهنا لا يذكر لنا الشاعر كيف توصل إليها صاحبها ، ولا كيف قطعها من شجرتها ، بل يتخطى ذلك إلى مرحلة إعدادها ، فيذكر أن صاحبها تركها لتجف وتشرب ماء لحائها حولين كاملين ، وأنه كان يرفعها على ظهر العريش ليلا ، وينزلها عنه نهاراً ، حرصاً عليها من أن تصيبها حبال الشمس بأذى ، ثم ذكر أنه ترك عليها شيئاً من قشرها ، لتقوى به فلا تنشق .

وبالنظر فى مجموع هذين النصين ، والرجوع إلى شعر الشماخ فى القوس[1] يتبين ما يلى :

(ا) أن الشماخ قد استوحى معظم أفكاره العامة من شعر أوس ، فهو مثله ، قد اختار شجرها ، وصور مكانها ، واصطفى قاطفها ، ووصف ما بذل من الجهد فى سبيل الحصول عليها وإعدادها ، والحرص عليها ، والعناية بها ، ومدح غناءها ورنينها .

(ب) قرب بعض معانى الشماخ الجزئية من معانى أوس ، حتى لتستعير بعض ألفاظه أحياناً .

فقول أوس :

تعلمها فى غيلها وهى حظوة ... بواد به نبع طوال وحثيل
وبان وظيان ورنف وشوحط ... ألف أثيث ناعم متغيل

قريب منه فى المعنى قول الشماخ :

تخيرها القواس من فرع ضالة ... لها شذب من دونها وحواجز
نمت فى مكان كنها واستوت به ... فما دونها من غيلها متلاحز

فكلا القولين يصور مكانها ، وصعوبة الوصول إليها من خلال هذا الغيل الكثيف الملتف الأغصان وإن كان الشماخ قد بدأ حديثه عنها وهى عود صالح لأن

---

(١) راجع دراستنا لشعر الشماخ فيها : ص ١٩٧ – ٢٠١ من هذا الكتاب .

يتخذ منه قوس ، بينما يتحدث عنها أوس مذ كانت نبتة لينة .

وقول أوس :

فأنحى عليها ذات حد دعا لها رفيقا بأخذ بالمداوس صيقَلا

أخذ الشماخ معظم ألفاظ الشطر الأول منه فقال :

فأنحى عليها ذات حد غرابها عدو لأوساط العضاه مشارز

وإن اختلفت مناسبة البيتين فى شعر كلا الشاعرين .

وقول أوس :

فمظعها حولين ماء لحائها تعالى على ظهر العريش وتنزل

يكاد الشماخ يهتدم مصراعه الأول فى قوله :

فمظعها عامين ماء لحائها وينظر منها أيها هو غامز

وقول أوس :

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نئيا وأزملا

عول الشماخ على معناه [1] فى قوله :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وإن كان فى بيت الشماخ مزية سنذكرها بعد .

وقول أوس :

وصفراء من نبع كأن نذيرها إذا لم تخفضه عن الوحش أفكل

أخذ الشماخ معناه ، وزاد فيه فقال :

قذوف إذا ما خالط الظبى سهمها وإن ريغ منها أسلمته النواقز

على أن فى بيت الشماخ هذا مزية أيضاً سوف نوضحها قريباً .

وقول أوس :

وإن شد فيها النزع أدبر سهمها إلى منتهى من عَجْسِها ثم أقبلا

---

(١) نص على ذلك بعض القدماء (انظر : الأشباه والنظائر : للخالديين : مخطوط : ص ١٧٢) .

هو الأصل فى معنى قول الشماخ :

وذاق فأعطته من اللين جانبا   كفى ولها أن يغرق السهم حاجز

(حـ) امتاز خيال أوس فى أبياته الأولى على الشماخ بهذه الصورة المفصلة، التى اختارها لبيان مدى صعوبة مكانها . وما يتطلبه الوصول إليها من مشقة ومخاطرة، حيث يقول :

ومبضوعة من رأس فرع شظية   بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه   عللن بدهن يزلق المتنزلا

وقوله :

فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن   لتبلغه حتى تكل وتعملا
فأبصر إلهابا من الطود دونها   ترى بين رأسَىْ كل نيقين مهبلا

وقوله :

وقد أكلت أظفاره الصخر كلما   تعايا عليه طول مرقى توصلا
فما زال حتى نالها وهو معصم   على موطن لو زل عنه تفصلا

بينما اقتصر الشماخ فى ذلك على قوله :

تخيرها القواس من فرع ضالة   لها شذب من دونها وحواجز
نمت فى مكان كنها واستوت به   فما دونها من غيلها متلاحز
فما زال ينجو كل رطب ويابس   وينغل حتى نالها وهو بارز

كما انفرد أوس ببعض الصور التشبيهية البديعة . كما فى قوله :

على ظهر صفوان كأن متونه   . . . . البيت . . . .

وقوله — وقد أعجب به بعض القدماء؛ لحسن التشبيه فيه ،وجودة معناه وصحته (١) :

---

(١) فى الأشباه والنظائر : (مخطوط) : ص ١٧١ «وله [أى أوس] فى وصف القوس وقت عملها بيت أجادالتشبيه،وفات جميع الشعراء فى جودة معناه وصحته،وهوقوله : . . . (البيت) ومن تأمل سنى البهمى فى آخر الربيع وأول الصيف وهووقت تفتله رآه أشبه الأشياء بما ذكره أوس فى بيته هذا » .

على فخذيه من براية عودها شبيه سفى البهمى إذا ما تفتلا

وقوله :

فملَّك باللِّيط الذى تحت قشرها كغِرْقِىء بيْضٍ كنه القيض من عل

(د) وامتاز الشماخ على أوس فى عدة نواح منها :

١ — سهولة الألفاظ عموماً ، وقلة الغريب منها بالنسبة لما فى أبيات أوس من غريب اللفظ .

٢ — طرق الشماخ معانى جديدة لم يتعرض لها أوس ، وذلك كما فى أبياته التى يتحدث فيها عن بيع القوس ، وكما فى قوله :

فلما اطمأنَّت فى يديْه رأى غِنًى أحاط به وازوَرَّ عمَّن يُحَاوِز

وقوله :

كأن عليها زعْفراناً تُميرُه خوازنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ

وقوله :

إذا سُقط الأنداء صينت وأكرمت حبيرا ولم تدرج عليها المعاوز

وكذا ما مر بنا من تصويره للصراع النفسى لصاحبها حين ساومه الشارى عليها ، وما انتابه من انفعالات حين فارقها . . . وكل ذلك لم يلم به أوس .

٣ — فات الشماخ أوساً فى بعض المعانى التى سبقه أوس إليها ؛ وذلك إما لجمال تصويره وروعة خياله ، كما فى قوله :

إذا أَنْبَض الرامُون عنها ترنَّمتْ تَرَنُّم ثَكْلى أَوْجَعَتْها الجنائزُ[1]

فهذه لمحة وجدانية[2] سبق أن أشرنا إليها ، لا نجدها فى بيت أوس السابق .

وإما للزيادة فى المعنى مع الإيجاز فى التعبير عنه ، كما فى قوله :

قذوفٌ إذا ما خالط الظَّبْىَ سهمُها . . . . . البيت

---

(١) عده بعض القدماء من التشبيهات العقم (انظر : مسالك الأبصار : ج ٩ قسم : ١ لوحة ٢٨) .

(٢) راجع : ص ٢٠٠ — ٢٠١ من هذا الكتاب .

فقد عبر أوس عن ارتياع الوحش من صوتها فى بيت ، وأتى الشماخ فى هذا البيت بهذا المعنى ، وزاد عليه ، فحاز المزيتين ؛ الزيادة فى المعنى ، والإيجاز .

٤ — للشماخ بعض الفلذات الوجدانية ، لا نجد لها نظيراً عند أوس ، كما أنه فى بعض معانيه وصوره ، يمتاز على أوس بأنه لا يقيد خيال القارئ ، ويحكم ربطه بالواقع المحسوس ، بل يتيح له نوعاً من التحليق ، والنشاط من وراء الحس ، وقد مر بنا ذلك عند دراسة شعر الشماخ فى القوس . بينما يشعرك أوس فى أبياته دائماً بأنك أمام قوس ، يتحدث عنها الشاعر ويصفها ، حديثاً ووصفاً شديد الارتباط بالحس والواقع ، نرى ذلك فى قوله — مثلا — : « على خير ما أبصرتها من بضاعة . . . » وقوله : « على فخذيه . من براية عودها . . » وغير ذلك كثير .

ونكتفى بهذا القدر الموجز ، ومنه نرى أن أوساً وإن كان رائداً للشماخ فى وصف القوس ، إلا أن الشماخ أجاد معارضته ، وامتاز عليه بما ذكرنا مضافاً إليه مزية الارتجال .

الحمر الوحشية فى شعر أوس بن حجر والشماخ :

وكما اشتهر أوس بوصف القوس ، كذلك اشتهر بوصف الحمر الوحشية ، يقول ابن قتيبة فى ترجمته لأوس : « . . وهو من أوصفهم للحمر والسلاح ، ولاسيما القوس ، وسبق إلى دقيق المعانى »[١] .

وروى أبو الفرج بسنده عن ابن الأعرابى أنه قال : « لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبى دؤاد ، ولا وصف الحمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر . . »[٢] .

ولأوس فائية طويلة مطلعها :

تنكَّر بعدى من أُمَيْمة صائفُ فَبِرْكٌ فأَعلى تَوْلَبٍ فالمَخَالِفُ[٣]

تناول فيها وصف الحمر الوحشية والقانص فى (٣١) بيتاً ، لم نجد له فى وصف الحمر سواها .

---

(١) الشعر والشعراء : ١/١٥٤ . (٢) الأغانى : ١٥/٩٣ .

(٣) القصيدة فى ديوانه : ص ٦٣ — ٧٤ وأبياته فى الحمر منها : ص ٦٧ — ٧٣ .

ولما كان للشماخ شعر كثير فى وصف الحمر ، وقد يكون من التعسف اختيار أبيات من قصيدة بعينها لمقارنتها بأبيات أوس ؛ لذا سوف نقتصر على إيراد بعض معانى أوس ، ونعارضها بما يماثلها أو يقاربها من معانى الشماخ . ونتخذ من ذلك أساساً للموازنة بين الشاعرين فى هذا الموضوع .

يقول أوس مشبهاً ناقته بحمار الوحش :

كأنى كسوت الرحل أحقب قاربا له بجنوب الشَّيِّطَيْن مَسَاوِفُ(١)

والمصراع الأول من هذا البيت يردده الشماخ — تقريباً — فى أكثر من موضع فيقول :

كأنى كسوت الرحل أحقب ناشطاً من اللاءِ ما بين الجناب ويأجج

ويقول :

كأنى كسوت الرحل أحقب سَهْوَقا أطاع له من رامتين حديق

وقريب منه قوله :

كأن قتودى فوق أحقب قارب أطاع له من رامتين غميرها

ويتناول الشماخ ما يشير إليه أوس فى المصراع الثانى من بيته، من عادة شم الحمار لثرى أبوال أُتُنه ، فيفصله ويزيد فيه ، فيقول :

متى ما يَسُفْ خَيْشُومُهُ فوق تَلْعة مَصامةَ أعْيار من الصيف يَنْشِجِ

ويقول :

دعولٌ إذا ما استاف منها مَصَامةً له من ثرى أبْوَالهن نشيق

وهكذا نرى الشماخ لا يقف بالمعنى عند مجرد وصف الحمار بتلك العادة — كما فعل أوس — بل يصور لنا مع ذلك ما يفعله الحمار عند ممارسته لها، تصويراً واقعيًّا محسوساً ، فيذكر أنه تارة يتهيأ للنهاق، وأخرى ينتشى فيمشى مشية خاصة فيها ضعف وعجلة .

---

(١) الشيطين : موضع . مساوف : مواضع أبوال الحمير وأرواثها التى يشمها الحمار .

ويقول أوس :

يُقلِّب قَيْدودًا كأَن سَرَاتهَا صفَا مُدْهُنٍ قد زَحْلَغَتْه الزحالِفُ[١]

ويعبر الشماخ عن ملاسة ظهور الأتن ، ولكنه لا يكتفى بهذه الصورة البسيطة التى تقتصرعلى تصوير ملاسة ظهر الأتان ليس غير ، بل يحاول أن يعدد الألوان والأصباغ فى الصورة ، كل ذلك فى لفظ موجز ، وخيال بديع .

فيقول :

كأَن متونهن مولياتٍ عصىّ جناح طالبة لموع

فهذه صورة حية متحركة — بخلاف صورة أوس — متعددة العناصر والألوان ، فيها الملاسة واللمعان ، واختلاف اللون ما بين خطوط سوداء ، وأخرى بيضاء ، [٢] وهكذا يتفوق الشماخ على أوس فى هذه الصورة .

ويقول أوس :

وأَخْلَفَه من كل وَقْطٍ ومُدْهُنٍ نِطافٌ فمشروبٌ يَبَابٌ وناشِفُ[٣]

وحَلَّأَها حتى إذا هى أَحْنَقَتْ وأشرف فوق الحالبَين الشَّراسِفُ[٤]

وخَبَّ سَفَا قُرْيانِه وتوقدت عليه من الصَّمَّانتَيْن الأَصَالِفُ[٥]

فأَضحى بقارات السِّتار كأَنه ربيئة جيش فهو ظمآن خائفُ[٦]

يقول له الرَّعُون : هذاك راكب يؤبِّن شخصاً فوق علياء واقف

---

(١) القيدود : الأتان الطويلة ، ومعنى أنه يقلبها : يصرِّفها يميناً وشمالا . المدهن : نقرة فى الجبل يستنقع فيها الماء . وصفاها : صخرها . زحلفته الزحالف : يريد أنه شديد الملاسة .

(٢) راجع : ص ١٧١ من هذا الكتاب . فهناك مزيد تفصيل لهذه الصورة عند الشماخ .

(٣) الوقط : حفرة فى الجبل يجتمع فيها الماء .

(٤) حنقت . . إلخ : اغتاظت وضمرت حتى لحق بطنها بظهرها . الشراسف : جمع شرسوف : وهو الطرف المشرف على البطن من الضلع .

(٥) خبّ : ارتفع وطال . قريانه : مسايل مائة . الأصالف : الأماكن الصلبة من الأرض فيها حجارة .

(٦) القارات : جمع قارة : وهو جبيل مستدق ملموم فى السماء . الستار : علم على عدة مواضع بالجزيرة العربية .

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صدّ عن نار المُهوّلِ حَالِفُ
تذكر عيناً من غمازة ماؤها ... له حَبَبٌ تستنّ فيه الزخَارِفُ[1]
له ثَأَدٌ يهتزّ جَعْدٌ كأنه ... مُخَالطُ أرجاءِ العيون القراطِفُ[2]
فأوردها التقريب والشدَّ منهلا ... قَطَاهُ مُعِيدٌ كرَّة الوِرْد عاطِفْ

فى هذه الأبيات يذكر أوس : أن هذا الحمار أدركه الحر ، وقد أعجزه العثور على الماء فى الجبل لندرته حينذاك ، فظل يمنع أتنه من الورد حتى هزلت وقد تقدمها واقفاً على الجبل يؤلمه الظمأ ، ويمنعه الخوف على حياته وحياة أتنه ممن قد يكون عند موارد المياه من الصيادين ، من أن يرد بهن ، كما تؤلمه الشمس بحرها إذا استقبلته فيحوّل وجهه عنها ، ثم تذكر عين ماء بعيدة ، ماؤها يضطرب لكثرته ، فقصد بأتنه هذا المنهل البعيد ، وهو يشتد فى سوقها ويكلفها ألواناً من العدو .

وقد تناول الشماخ هذه المعانى فزاد فيها ، وفصل ، وأبدع ، وتأنق ما شاء له التأنق فى عدة مواضع من شعره فى الحمر [3]. ونورد هنا مثالا واحداً لهذه المعانى فى شعر الشماخ وهو قوله :

تربّع أكناف القنان فصارَةً ... فماوان حتى قاظ وهو زَهُوم
إلى أن علاه القيظ واستنّ حوله ... أهــابِىٌّ منها حاصب وسَمُومُ
وأعوزه باقى النِّطاف وقلصت ... ثمائلها وفى الوجوه سُهُوم
وحَلأَها حتى إذا تم ظِمْؤُها ... وقد كاد لا يبقى لهن شحوم
فظل سراة اليوم يقسم أمره ... مُشِمتٌّ عليه الأمر ، أين يروم؟
وأقلقه هم دفين ينوبه ... وهاجرةٌ جرَّتْ عليه صدُوم

---

(١) غمازه : بئر بعينها ، أو : عين ماء . وحبب الماء وحبابه : معظمه . تستن : تضطرب . زخارف الماء : طرائقه .

(٢) الثأد الجعد : التراب الندى اللين . القراطف : جمع قرطفة : وهى القطيفة المخملة .

(٣) انظر — مثلا — : القصيدة : ١ : الأبيات : ٩ — ١٥ . والقصيدة : ٦ : الأبيات : ١٢ — ٢١ . والقصيدة : ٧ : الأبيات : ٢٤ — ٢٨ .

برابية ينحط عنها معشِّرًا ويعلو عليها تارة فيصوم
وظلت كأن الطير فوق رءوسها صياماً تراعى الشمس وهو كظوم
مخافة مخشىّ الشَّذاة عَذَوَّر لنابيه فى أكفالهن كُلُوم
إلى أن أجن الليل وانقض قارباً عليهن جياش الجِراء أَزُوم
وكَمَّشَها ثَبْتُ الحضار ملازم لما ضاع من أدبارهن لزُوم
فأوردها ماء بغَضْوَرَ آجناً له عِرْمِضٌ كالغِسْل فيه طُمُوم

وقد مر بنا عرض هذه الأبيات وتحليلها(١)، ومنه يتبين :

١ — أن الشماخ يتفق مع أوس فى كثير من المعانى العامة للموضوع ، فكلاهما يبدأ بذكر اشتداد الحر وقلة الماء ، ثم يتعرض لظمأ الحمار والأتن وضمورهن ، ومنع الحمار لهن من الورد خوفاً من القناصة ، وأخيراً يذكر كل منهما عزم الحمار على الورد بأتنه ، والاشتداد فى سوقها إلى الماء الذى يقصده بهن ، ويصف هذا الماء .

٢ — يزيد الشماخ فى بعض المعانى ويقلبها على وجوهها المختلفة ، زيادة فى استيفاء المعنى وتوضيحه وإبرازه . من ذلك مثلا : تعبيره عما أصاب الأتن بسبب الحر والظمأ ، فبينما يقتصر أوس على وصفها بالضمور والغيظ ، نجد الشماخ يعبر عن ذلك بتقلص ثمائلها وتغير وجوهها ، وهزالها ، وذهاب شحومها .

وكذلك تعبير كل منهما عن اشتداد الحمار فى سوق أتنه إلى الماء، أما أوس، فيقتصر فى ذلك على بيان ما يكلفها به من ضروب العدو، وأما الشماخ فيذكر إسراعه إلى سوقهن وتدفقه فى الجرى ، واستقامته فى العدو بهن، واشتداده فى حثهن على الجرى بما يصيبهن به من العض ، وعدم مفارقته لأدبارهن ؛ حتى لا تند إحداهن عن القطيع .

٣ — تفوق الشماخ على أوس فى تصويره لقلق الحمار وهمومه ، ومشاعر الأتن ونوازعها. فقد تغلغل فى نفسية هذه الحمر ، وأبرز عواطفها ومشاعرها فى هذا

---

(١) راجع : ص ١٧٦ — ١٧٨ من هذا الكتاب .

الموقف ، وقد فصلنا الكلام على ذلك فيما سبق[١] . بينما نجد أوساً يقتصر على تصوير الحمار وهو واقف فوق الجبل، يشعر بالظمأ والخوف تصويراً يتناول المظهر الخارجي ، ولا ينبئ عن دخيلة نفسه ، وما يضطرب فيها من مشاعر الهم، والقلق والألم ، كما أنه وصف الأتن بالغيظ ، والحقد على الحمار لما منعها من الورد ولكنه لم يصور لنا مظاهر هذا الغيظ ودلائله ، وهل كانت تكظم هذا الغيظ ، أم تبديه، بخلاف ما نرى عند الشماخ .

٤ ــ أجاد أوس فى وصفه للماء ، بينما أوجز الشماخ واقتضب ، فاقتصر على تشبيه ما عليه من الطحلب بالغسل ، كما أجاد أوس فى تعبيره عن بعد المنهل، وأهمل الشماخ التعبير عن هذا المعنى .

٥ ــ أبيات أوس ، وإن كانت أقل عدداً من أبيات الشماخ إلا أن الغريب فى ألفاظها أكثر منه فى أبيات الشماخ .

هذا كله على الرغم من أن أوساً يعد أستاذاً للمجودين فى الشعر ، الذين يعاودون النظر فيه ، ويتولونه بالتنقيح والتهذيب ، بينما يسمح به الشماخ بديهة وارتجالا .

ونقف عند هذا الحد من الموازنة بين قول أوس فى الحمر ، وقول الشماخ فيها ، وفيما أوردناه بعض الغناء فى الإبانة عن مذهب كل من الشاعرين ، ومدى تجويد كل منهما فيما تناوله من المعانى .

* * *

الحمر الوحشية فى شعر زهير بن أبى سلمى والشماخ :

كذلك عرف زهير ببراعته فى وصف الوحش والصيد[٢] . وله قصيدة همزية طويلة مطلعها :

عفا من آل فاطمة الجِواءُ فَيُمْن فالقَوَادِمُ فالحِساءُ

---

(١) راجع : ص ١٧٧–١٠٨ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٣١٨ .

(٣) ديوانه : ص ٧ . والأبيات التى يصف فيها الحمر : ص ٩ – ١١ .

يشبه فيها ناقته فى سرعتها بحمار وحش ، ويصف هذا الحمار وأتنه فى أربعة عشر بيتاً يقول فيها :

أذلك أم شتيم الوجه جأبٌ ... عليه من عقيقته عِفَاءُ[١]
تربَّع صارةً حتى إذا مــا ... فَنَى الدُّحْلاَن عنه والإِضَاءُ[٢]
ترفــع للقَنَان وكل فجٍّ ... طَبَاهُ الرِّعْىُ منه والخَلاَءُ[٣]
فأَوردها حياض صُنَيْبِعَاتٍ ... فألفاهن ليس بهن ماءُ[٤]
فشَجَّ بِها الأَماعز فهى تَهوى ... هوِىَّ الدَّلْوِ أَسْلَمها الرِّشَاءُ[٥]
فليس لُحَاقَه كلُحاق إِلْفٍ ... ولا كنجاتهــا منه نجاءُ
وإن مالا لِوعْثٍ خَازَمَتْه ... بألواحٍ مفاصلها ظِماءُ[٦]
يَخِرُّ نَبِيذُها عن حاجبيْه ... فليس لوجهه منه غطاء[٧]
يغرِّدُ بين خُرْمٍ مُفْضِياتٍ ... صواف لم تكدِّرها الدِّلاءُ[٨]
يفَضِّلُه إذا اجتهدا عليه ... تَمَامُ السِّنِّ منه والذَّكاءُ
كأَن سَحِيلَه فى كل فَجْرٍ ... على أَحْسَاءِ يمئُودٍ دُعَاءُ[٩]
فاض كأَنه رَجلٌ سَليبٌ ... على عَلْياء ليس له رِدَاءُ[١٠]

---

(١) شتيم الوجه : كريهه . الجأب من حمر الوحش : الغليظ منها . العقيقة هنا : الشعر الذى يولد به الحمار . العفاء : الشعر .

(٢) تربع : أقام زمن الربيع . صارة : موضع . الدحلان : جمع دحل : وهى البئر الجيدة الموضع من الكلأ . الإضاء : الواحد أضاة : الغدير .

(٣) ترفع : ارتفع . القنان : جبل . طباه : دعاه . الرعى : ما يرعى من الكلأ .

(٤) صنيبعات : اسم أرض . (٥) الرشاء : الحبل .

(٦) الوعث : الطريق الغليظ العسر . خازمته : عارضته بعدوها . الألواح : أراد بها عظامها . ظماء : صلاب قليلة اللحم غير مترهلة .

(٧) يخر : يسقط . نبيذها : ماتنبذ بحوافرها من الغبار .

(٨) الخرم : غدران انخرم بعضها إلى بعض فسال هذا فى هذا .

(٩) السحيل : صوت الحمار . يمئود : موضع .

(١٠) آض : صار . السليب : العريان . على علياء : على مرتفع من الأرض .

كأَن بريقه بَرَقَانُ سَحْلٍ جَلَا عن متنهِ حُرُضٌ وماءُ[١]
فليس بغافل عنها مُضِيع رعيتَه إذا غَفل الرِّعاء

فزهير فى هذه الأبيات كأوس والشماخ ، يتطرق إلى الحديث عن الحمر متخذاً نفس الوسيلة ، وهى ذلك التشبيه الاستطرادى ، الذى يتوسل به الشاعر إلى الانتقال من وصف ناقته إلى وصف الحمر ، وذلك بتشبيه هذه الناقة بحمار الوحش .

وهذا الحمار الذى يشبه زهير ناقته به كريه الوجه غليظ سمين ، قد تربع فى مكان خصيب ، حتى إذا أقبل الصيف ، وجفت مياه الحفر والغدران اعتلى الجبل ، وارتاد الفجاج الخصبة الخالية من الناس للرعى ، وأخذ يسوق أتنه سوقاً عنيفاً ، ليرد بهن مواضع الماء ، لا يغفل عنها ، فهى تجد فى السرعة ، وهو فى إثرها لاصق بها ، ومن ثم ، فهى تثير الغبار فى وجهه ، فإذا ما تم له ما أراد ، وانتهى بأتنه إلى حيث تتوافر المياه النقية الصافية أخذ يرفع صوته غرداً نشيطاً ، يدعوها فتجيب الدعاء ، وهو لتمام سمنه ، وإحكام خِلْقته ، قد سقط عن جسمه الشعر ، فبدا له بريق ولمعان .

والأفكار العامة فى أبيات زهير ، هى نفس الأفكار العامة عند كل من أوس والشماخ فكل منهم يشبه ناقته بحمار وحش قوى أدركه الحر حيث تقل المياه ، فهو يجوب بأتنه الصحراء طلباً للماء ، ويسوقها فيشتد فى سوقها ، وهى مطيعة له ، خاضعة لمشيئته ، وهو يرعاها فلا يقصر فى رعايتها .

والذى يهمنا هو وصف زهير هذا للحمر ووصف الشماخ لها ، ولنبدأ بالمعانى المشتركة بين الشاعرين .

فزهير يصف صوت الحمار فيجعله تغريداً مرة ، ويشبهه بصوت إنسان يدعو صاحبه مرة أخرى . أما الشماخ فلا يجعله مجرد دعاء أو تغريد ، بل يفيض عليه من جمال نفسه فيجعله غناء ، ولم يجعله أى غناء ، بل غناء سكران يترنح بعيد عن الأهل ، يتألم من فجيعة حلت به[٢] فيقول :

---

(١) بريقه : أى بريق جسم الحمار ولمعانه . السحل : ثوب أبيض . جلا عن متنه : أى جلا عنه كله . الحرض : الأشنان : وهو نبات تغسل به الأيدى .

(٢) راجع : ص ٢٧٤ من هذا الكتاب فثمة مزيد تفصيل لهذه الصورة .

كأَنَّ سَحِيلَه فى كل فَجٍّ تغَرُّدُ شارب ناءٍ فجُوع

وزهير يصف الحمار بالضمر والاندماج ، ويتناول هذا الوصف بخياله ، فيصوره وقد سقط عن جسمه الشعر وتحملج فى صورة رجل عريان ، واقف على مرتفع من الأرض ، وقد أمعن فى إبراز هذه الصورة بقوله : « على علياء » ؛ لأن ذلك أظهر لخلقه ، وأكمل لطوله ، ونبحث فى شعر الشماخ عن نظير لهذا المعنى فلا نجد الا قوله :

أَطَارَ عَقِيقَه عنه نُسَالاً وأُدْمِجَ دَمْجَ ذِى شَطَنٍ بدِيع

وهنا نجد الشماخ يقتصر على وصف الحمار بالسمن ، ويدلل على ذلك بسقوط شعره المولود به ، وباندماج خلقه ، وإحكام أعضائه ، كما يحكم فتل الحبل الجديد ، فالشماخ يقرر هذا المعنى ، أما زهير فيصوره .

ويكرر الشماخ هذا المعنى فى وصف الأتن ، فيقول :

رعتْ بارضَ الوَسْمِىِّ حتى تَحَمْلَجَتْ وطُيِّرَ عن أقرابهنَّ عقِيق

وهكذا نرى الشماخ يقتصر فى هذا الوصف على تقرير ما يراه بعينه من واقع محسوس ، بينما يتولى زهير هذا الواقع المحسوس بخياله فيصوره فى تلك الصورة الغريبة !!

وزهير يقرر أن الحمار لا يغفل عن رعاية أتنه ، ولكنه لا يحدثنا إلا عن مظهر واحد من مظاهر هذه الرعاية ، وهو ملازمة الحمار لها ، وحرصه الشديد على اللحاق بها حتى لا تفوته ، بينما يفصل الشماخ هذا المعنى فى مواضع كثيرة من شعره فى الحمر ، ويصور كثيراً من مظاهر هذه الرعاية ، فيتحدث عن خوفه عليهن من القانص ، وحرصه على ألا يرد بهن الماء إلا إذا أجن الليل فيقول :

ولمَّا رأَى الإظْلامَ بادره بهـا كما بادر الخَصْم اللَّجُوج المُحَافِزُ

ويقول :

إلى أن أَجن الليل وانقض قارباً عليهن جياش الجراء أَزوم

كما يتحدث عن حرصه على ألا تند إحداهن عن الجماعة ، فتضل وتتعرض

للمخاطر ، فيقول :

إذا خاف يوماً أن يفارق عانة ... أضر بملساء العجيزة سمحج

أَضَرَّ بمقْلاةٍ كَثِيرٍ لُغُــوبُها ... كقوْس السَّراءِ نَهْدَةَ الجَنْب ضمْعَج

ويقول :

فوجَّهها قواربَ فاتْلأَبَّتْ ... له مثل القنا المتأَوِّدات

يَعَضُّ على ذواتِ الضِّغْن منها ... كما عضَّ الثِّقَافُ على القناة

ويقول :

فظلَّ بهن يحدوهن قصدًا ... كما يحدو قلائصَه الأَجيرُ

كذلك يتحدث عن رعايته لها إذا بلغت مأمنها فيقول :

مُحامٍ على عَوْراتها لا يرُوعها ... خيالٌ ولا رامى الوحوش المُنَاهِزُ

فأَصبح فوق النَّشْز نَشْزحمامة ... له مركض فى مستوى الأَرض بارزُ

وظلت تفَالى باليفاع كأَنها ... رماحٌ نَحَاهَا وِجْهةَ الرِّيح رَاكز

وغير ذلك كثير فى شعره .

وزهير يصف المياه التى انتهى إليها الحماربأتنه، فيذكر أنها ليست بآبار يستقى منها فتكدرها الدلاء ، ويعبر الشماخ عن هذا المعنى نفسه فيقول :

فأَوردهن تقريباً وشَدًّا ... شرائع لم يُكَدِّرْها الوَقِيرُ

فيحتاط للمعنى أكثر من زهير ؛ إذ أن ما ذهب إليه زهير من أنها ليست بآبار يستقى منها بالدلاء ، وإنما هى غدران ظاهرة المياه يفضى بعضها إلى بعض ، لا يمنع من أن تكدرها السوائم التى ترد المياه . أما الشماخ فقد أفاد ضمناً أنها ليست بآبار وذلك بقوله : « شرائع »[١] كما نص على أن السوائم لم تردها من قبل بقوله : « لم يكدرها الوقير » .

---

(١) راجع شرح البيت فى هامش الديوان : ٢١/٦ .

وزهير يصور بريق الحمار ولمعانه ، فيشبهه ببريق ثوب أبيض قد غسل بالحرض فجلا لونه .

ويأتى الشماخ بهذا الوصف ويزيد عليه فى تلك الصورة الرائعة ، والعبارة الموجزة فى قوله يصف الأتن :

كأَن متونهنَّ مولِّياتٍ عِصِىٌّ جَنَاح طَالِبةٍ لَمُوع

وقد مر بنا تفصيل القول فى جمال هذه الصورة ودقتها[1] ، وقد فاق فيها الشماخ كلاً من أوس وزهير .

وقريب من قول زهير :

وإنْ مالا لِوعْثٍ خازمتْه بأَلواحٍ مفاصلُها ظِمَاءُ

قول الشماخ :

وإنْ جاهدتْه بالخَبَار انبرى لها بذاو وإن تهبطْ به السهل يَمْعَجِ

وإن أحسن زهير فى التعبير عن قدرة الأتان على معارضة الحمار فى شطر بيت ، وجعل الشطر الثانى كالتأكيد لهذا المعنى ، والتدليل عليه ، وقد ألم الشماخ بالمعنى حتى قوله : « بذاوٍ » ثم جاء فى بقية الشطر الثانى بما كان يغنى عنه الشطر الأول ؛ لأن الحمار إذا كان قادراً على معارضة عدْو الأتان فى الأرض اللينة التى يصعب العدو فيها ، فهو على معارضتها فى السهل أقدر .

أما المعانى التى ألم بها زهير ، ولم نجد لها نظيراً فى شعر الشماخ فهى قليلة . كقوله :

يخر نبيذها عن حاجبيه ..... البيت

وقوله :

يفضله إذا اجتهدا عليه ..... البيت

هذا ، ولغة زهير فى هذا الوصف أقرب إلى السهولة من لغة الشماخ ، والغريب فيها أقل من الغريب عند الشماخ ، ويرجع هذا إلى ما هو معروف عن زهير من

---

(١) راجع : ص ١٧١ ، ٣٠٤ من هذا الكتاب .

تنقيح شعره وتهذيبه ومعاودة النظر فيه . وكان هذا مما جعل عمر بن الخطاب يقدمه على الشعراء[١] .

على أن شعر كل من الشاعرين لم يصل إلينا كاملا ، وما قصدنا إلا عرض نماذج من شعر كل منهما ، ربما استطاعت أن تعطينا فكرة عن مدى تجويد كل من الشاعرين فى موضوع الحمر الوحشية .

* * *

الناقة فى شعر طرفة بن العبد والشماخ :

يعد طرفة من أشهر الشعراء الذين تعرضوا لوصف الناقة وأفضلهم ، وخاصة فى داليته المشهورة[٢] التى يعتبر وصف الناقة فيها أوفى نماذج وصفها فى الشعر العربى[٣] ، ولا نعلم أحداً من الشعراء جمع من أوصاف الناقة فى قصيدة واحدة ما جمعه طرفة فى هذه الدالية .

وصف طرفة ناقته فى تسعة وعشرين بيتاً من هذه القصيدة الطويلة ، تناول فيها هيئتها وجوارحها ، وأخلاقها ، وقدرتها على مواصلة السفر فى أصعب الأمكنة ، وأشد الأوقات وضروب سيرها . . . إلخ .

وليس من غرضنا هنا أن نورد كل ما قاله طرفة[٤] والشماخ فى وصف الناقة ، وأن نتوسع فى الموازنة بين الشاعرين ، وحسبنا فى هذا المقام أن نوازن بين قول كل منهما فى بعض المعانى التى تناولها كلاهما فى شعرهما .

يصف طرفة خِلْقة ناقته ، وهيئتها العامة فيقول :

---

(١) انظر : الأغانى : ٩/١٣٠ .

(٢) انظر : العمدة : ٢/٢٢٧ ، وفن الوصف (إيليا حاوى) ١/٤٨ ، والأدب العربى وتاريخه (هاشم عطيه) : ١٢١ .

(٣) انظر : فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/٥٠ .

(٤) سوف نقتصر فيما سنورده من شعر طرفة فى الناقة على قصيدته الدالية ، وأبياته فى وصف الناقة فيها تقع فى الديوان ما بين صفحتى : ٣٤ — ٤٤ .

أَمون كأَلواح الإِرَان نسأْتها ... على لاحِبٍ كأَنه ظهر بُرْجُد[1]
جُماليَّة وجنــاء تَرْدِى كأَنها ... سَفَنَّجةٌ تردِى لأَزعر أَرْبَد[2]

ويقول :

كقنطرة الرُّومىّ أَقسم ربُّها ... لَتكْتنَفَنْ حتى تُشاد بِقَرْمَدِ[3]

أما الشماخ فمن قوله فى ذلك :

جُمــاليَّة فى عطفها صَيْعَريَّة ... إذا البازلُ الوجناءُ أُردف كورها
جُمَاليَّة لو يُجعل السيفُ عُرضهَا ... على حدِّه ـ لاستكبرت أَن تَضَوَّرَا
عَنْس مذكرة كأَن ضلوعها ... أُطُرٌ حناها الماسخىُّ بيثرب
علياء نضَّاخة الذِّفْرى مذكرة ... عيْرانةٌ مثل قوس الفِلْقة الضَّالِ
وخَرْق قد جعلتُ به وسَادِى ... يدىْ وجناءَ مُجْفَرة الضلوع
وعَنْس كأَلواحِ الإِرَان نسأْتُها ... إذا قيل للمشْبُوبتَيْن هُمَا هُمَا

ومن هذا نرى أن الشماخ يردد فى وصف خلقة ناقته ، وهيئتها العامة ما سبقه إليه طرفة، من تشبيهها بالجمل فى وثاقة الخلق فيقول : « جمالية » أحياناً و« مذكرة » أحياناً أخرى ، كذلك يصفها كما وصفها طرفة باكتناز اللحم ، وعظم الوجنات فى قوله : « وجناء » .

ويرسم كل من طرفة والشماخ صورة لضخامة ناقته ، وعظم خلقتها . أما طرفة فيراها بحدقة خياله البعيدة كقنطرة الرومى المحكمة البناء ، وطرفة فى هذه الصورة المبتكرة لا يلتمس شبيهاً لناقته فى ضخامتها ، وعظيم خلقتها فى الواقع الخارجى المحسوس ، بقدر ما يعبر عن الصدى النفسى لإعجابه بهذه الناقة ، ذلك الإعجاب

---

(١) أمون : لا تخشى عثراتها ، فراكبها آمن . الإران : تابوت الموتى من العظماء والسادة خاصة ، وهو ألواح عريضة من الخشب يشد بعضها إلى بعض ، شبه الناقة بها لسعة جنبيها وشدة خلقها .

(٢) تردى : تعدو وتسرع . سفنجة : نعامة. الأزعر : المراد به هنا ذكر النعام القليل الشعر الأربد : الذى يضرب لونه إلى الغبرة .

(٣) لتكتنفن . . إلخ : يريد أنه حلف أن تبنى من كل ناحية بدقة وإحكام ، ويشاد بناؤها بأقوى المواد وأصلبها . القرمد : الآجر .

الذى جعل خياله ينشط فيربط بين هاتين الظاهرتين على ما بينهما من بعد ، معتمداً فى ذلك على وحدة التأثير النفسى لكل منهما .

وأما الشماخ فيقع خياله على صورة لها طالما رددها من قبله الشعراء، حتى صارت أقرب إلى الابتذال منها إلى الجدة والابتكار ، وغدت من الصور التقليدية التى لا يمتاز فيها شاعر عن آخر ، وذلك حيث يشبهها بالسفينة فى قوله :

مُوَتَّرَةُ الأَنْساء مُعْوَجَّةُ الشَّوى سفينةُ بَرٍّ بالنَّجاء دَفُوق

أما تشبيه الناقة فى ضخامتها ، وشدة خلقها بألواح الإران ، فقد سبق به طرفة الشماخ — كما رأينا — على أن الصورة فيه جافية ، لا يحسنها كون هذه الألواح لا يحمل عليها إلا الموتى من العظماء والسادة .

ويصف كل من طرفة والشماخ ناقته بالسرعة حين تسابق غيرها من كرائم الإبل . فيقول طرفة :

تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعبَّدِ[1]

ويقول الشماخ — بعد ذكر رحيل صاحبته :

فما وصلها إلا على ذات مرة يقطع أعناق النواجى ضَريرُها

وعبارة الشماخ أدل على سرعة ناقته من عبارة طرفة ؛ وذلك لما صرح به من أنها تجهد السريعات من كرائم الإبل إذا سرن معها .

ووصف كل منهما ذنب ناقته . فقال طرفة :

تَريعُ إلى صوت المُهيب وتتقى بذى خُصَل روْعات أَكْلَفَ مُلْبِدِ[2]

كأَنَّ جناحىْ مَضْرَحىّ تَكَنَّفَا حِفَافَيْهِ شُكَّا فى العَسيب بمِسْرَدِ[3]

---

(١) عتاقاً : إبلا كراما . ناجيات : سريعات . وأتبعت .. إلخ : يعنى تتبع وظيف رجلها وظيف يدها فوق طريق مذلل ممهد بالسلوك فيه .

(٢) تريع : ترجع . المهيب : الداعى الذى يصيح بالإبل . بذى خصل : بذنبها ذى الخصل . الأكلف . المراد به الفحل الذى فى لونه كلفه : وهو لون بين السواد والحمرة . ملبد : ذو وبر متلبد .

(٣) مضرحى : نسر أبيض . تكنفا : صارا عن يمين الذنب وشماله . حفافيه : جانبيه . شكا : غرزا . العسيب : عظم الذنب . مسرد : إبرة يخرز بها .

فَطَوْرًا به خلف الزَّميل وتارةً على حشَفٍ كالشَّنِّ ذَاوٍ مُجدَّدِ (١)

وقال الشماخ :

خطُورٌ بريَّان العسيب كأَنه إهانُ عُذُوق فوقهن عُذُوق
تلطُّ به الحاذَيْن طورًا وتارةً له خلف أَثواب الرَّدِيف بُرُوق

وواضح أن بيت الشماخ الثانى يكاد يتفق فى المعنى والمراد ، بل فى بعض الألفاظ مع بيت طرفة الثالث ، فناقة كل منهما تحرك ذنبها إلى أعلى وإلى أسفل ؛ وذلك لوفرة نشاطها ، فإن حركته إلى أعلى فهى تلط به عجزها خلف رديف راكبها ، وإن حركته إلى أسفل فهى تضرب به ما ظهر من فخذيها فى قول الشماخ ، وما تقبض وجف منه اللبن من أخلافها فى قول طرفة .

وهذا الذى ذكره طرفة أقوى فى الدلالة على المراد من قوة ناقته ، حيث لم يضعفها حلب اللبن أو إرضاعه ، كذلك نجد طرفة أقوى فى تعبيره عن قوة ذنب ناقته ؛ حيث دلل على قوته بأنها تدفع به عنها أقوى الفحول ، بينما يكتفى الشماخ فى التدليل على قوته بغلظ عظمه .

وننظر فى الصورة التى رسمها كل منهما لذنب ناقته ، فإذا الخيال عند طرفة أبعد وأطرف ، فبينما يحلق طرفة بخياله فى أجواء عالية ليلتقط صورة جناحى نسر أبيض ، ويحكم غرزهما على جانبى ذنب ناقته ، يقع خيال الشماخ قريباً من الأرض على صورة عذوق نخل بشماريخها . فيشبه بها ما على جانبى ذنب ناقته من الوبر الكثيف .

ويصف طرفة مرفقى ناقته ويديها فيقول :

لهـا مرفقان أَفتلان كأَنما تَمُرُّ بسَلْمَىْ دَالجٍ مُتَشَدِّد (٢)
أُمِرَّتْ يداها فَتْل شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ لها عضداها فى سقِيفٍ مُسَنَّدِ (٣)

---

(١) الزميل : الرديف . حشف : أى أخلافها المتقبضة التى لا لبن فيها . الشن : القربة اليابسة البالية . مجدد : ذاهب لبنه .

(٢) المرفق : موصل الذراع فى العضد . أفتلان : فتلا فتلا فهما قويان مندمجان . سلمى : مثنى سلم وهو دلو بعروة واحدة . دالج : سقاء . متشدد : شديد قوى .

(٣) أمرت : فتلت فتلا شديداً . والفتل الزرر : الفتل عن اليسار ، وهو أشد الفتل . أجنحت : أميلت . السقيف : صفائح حجارة ، والمقصود به هنا : الزور ، وهو وسط الصدر ، وما ارتفع منه إلى الكتفين . مسند : أسند بعضه إلى بعض : أى شديد الخلق .

فكل من مرفقيها وقائمتيها الأماميتين قد اندمج وفتل فتلا شديداً .

وبمثل هذا يصف الشماخ قوائم ناقته . فيقول :

تَهوى بها مَكْرُباتٌ فى مرافقها   فتل صياب مياسير معاجيل

فقوائم ناقته مشدودة بمرافقها ، وهى مندمجة ، قد فتلت فتلا شديداً أيضاً ، ويزيد الشماخ وصفها بأنها لا تحيد عن القصد كما أنها خفيفة تلاين فى مشيها .

ومع ذلك فوصف طرفة لقوة ذراعى ناقته واندماجهما أقوى من وصف الشماخ ، حيث خص طرفة الفتل فجعله «فتل شزر » بينما أطلقه الشماخ ، كذلك لم يكتف طرفة بهذا الوصف ، بل أضاف إليه ما يؤكده ، ويزيد فيه بتلك الصورة التى يعبر بها عن قوة مرفقيها ، وبعدهما عن جنبيها حيث يشبهها بسقَّاءٍ قوى حمل دلوين ، إحداهما بيمناه والأخرى بيسراه ، فبانت يداه عن جنبيه .

ويصف كل من الشاعرين آثار النسع فى ناقته . فيقول طرفة :

كأَن عُلُوبَ النسع فى دَأَيَاتِها   مواردُ من خلقاءَ فى ظهر قَرْدَدِ (١)

تَلاقَى وأَحياناً تبين كأَنها   بَنَائِقُ غُرٌّ فى قميص مُقَدَّدِ (٢)

ولا نجد للشماخ فى ذلك إلا قوله ، بعد أن وصف الطريق :

علوتُ بِهَوْجاء النَّجاء شِمِلَّةٌ   بهــا من عُلُوبِ النِّسْعَتَيْنِ طُرُوق

ولا شك أن صورة هذه الآثار فى ناقة طرفة واضحة محددة ، فى لونها وهيئاتها ، فهى طويلة ممتدة على أضلاعها تتلاقى أحياناً ، وتتفرق أحياناً أخرى ، ويروح خيال طرفة يلتمس لها صورة محسوسة تبرزها ، فلا يحلق بعيداً ، بل يقع على تلك الصورة فى البيئة الطبيعية من حوله ، فإذا هو يراها شبيهة بطرق المياه على الصخور الملساء ، وطرفة بارع فى تخصيصه الموارد بأنها «من خلقاء فى ظهر قردد » وقد أفاد

---

(١) العلوب : جمع علب : الآثار . النسع : سير ينسج عريضاً يجعل على صدر البعير تشد به الرحال . الدأيات : فقر الظهر والكاهل ، أو غراضيف الصدر وضلوعه . الموارد : طرق الوراد إلى الماء . خلقاء : صخرة ملساء . القردد : الأرض الصلبة المرتفعة .

(٢) تلاقى : أى الموارد ، يعنى يتصل بعضها ببعض . بنائق : جمع بنيقة : ما يوصل به البدن ليوسعه ، والمراد : رقاع بيض فى جوانب قميص خلق .

بذلك أن ناقته صلبة شديدة كالصخرة ،لا تؤثر فيها النسوع إلا كما تؤثر الموارد فى الصخرة الملساء ، وهذه الآثار تخالف ما حولها فى اللون ، فهى بيضاء ، ناصعة البياض ، تتراءى فى خيال طرفة فى لون الرقاع الشديدة البياض الجديدة ، التى يوصل بها قميص خلق حائل اللون . . هكذا تولى خيال طرفة توضيح آثار النسوع فى ناقته ، وليست كذلك صورة هذه الآثار فى ناقة الشماخ ، من حيث الدقة والوضوح .

ويصور طرفة أعضاء ناقته . فيقول فى رأسها وعينيها وأذنيها :

وجمجمة مثل العلاة كأنما ... وَعَى الملتقى منها إلى حرف مبرد (١)

وعينان كالماوِيَّتيْن استكنَّتَا ... بكهفَى حِجَاجَىْ صخرة قَلْتِ مورْد (٢)

طَحُوران عُوَّار القذى فتراهما ... كمكحولتَىْ مذعورة أم فَرْقَدِ (٣)

وصادقتا سمع التوجس فى السُّرى ... لجرْسٍ خفىٍّ أو لصوتٍ مُندَّدِ (٤)

مُؤَلَّلتان تعرفُ العتق فيهما ... كسامعتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَدِ (٥)

ويصف الشماخ هذه الأعضاء من ناقته . فيقول فى رأسها :

كأنما فات لَحْيَيْها ومذبحها ... مُشَرْجَعٌ من عَلَاة القين ممطول

ويقول فى عينيها :

ترى الغيوب بمرآتين من ذهبٍ ... صَلْتَيْن ضاحيهما بالشمس مصقول

---

(١) العلاة : السندان ، وهى التى يضرب عليها الحديد . وعى : انضم واجتمع وتماسك . الملتقى : حيث يلتقى طرف الجمجمة مع فراش الرأس .

(٢) كالماويتين : كالمرآتين . استكنتا : استترتا ، يريد : أنهما غائرتان . حجاجى : مثنى حجاج : وهو العظم المشرف على العين الذى ينبت عليه الحاجب . القلت : نقرة فى الصخر تمسك الماء . مورد : مكان يورد إليه لأخذ الماء .

(٣) طحوران : يدفعان ويطردان . عوار القذى : قطعة من الرمد ، والقذى : وسخ العين وما يسقط فيها . مذعورة : بقرة وحشية خائفة . الفرقد : ولد البقرة .

(٤) التوجس : التسمع للصوت الخفى . المندد : الصوت المرتفع البين .

(٥) مؤللتان : من التأليل : وهو التحديد والتدقيق ، والدقة والحدة تحمدان فى آذان الإبل . العتق : الكرم والنجابة . شاة : ثور وحش . حومل : اسم موضع معين . مفرد : منفرد وحيد .

ويقول فيهما أيضاً :

وأَضحتْ على ماءِ العُذَيْب وعينُها كوقْبِ الصَّفَا جلْسيُّها قد تَغَوَّرا

ويقول فى أذنيها :

وحُرَّتيْن هِجانٍ ليس بينهما إذا هما اشْتَأَتا للسَّمْع تمهيل

ونعود إلى طرفة ، فنرى رأس ناقته صلبة كالسندان ، وملتقى عظامها يشبه أسنان المبرد، يجتمع فيلتئم التئاماً شديداً ، فلا ترى فيه نتوءاً شاخصة . وكذلك يصف الشماخ رأس ناقته بالصلابة ، ويشبهها فى ذلك — كما شبهها طرفة — بالسندان ، إلا أن الشماخ لا يقصر وجه الشبه على الصلابة ، ومن ثم فقد حدد معالم سندانه الذى يشبه به ، فجعله مطولا ممدوداً لا حرف لنواحيه ، وشبه رأس ناقته به فى ذلك أيضاً ، وبذلك أعطانا صورة فيها شىء من الدقة للهيكل العام لرأس ناقته ، بينما لم يحدد طرفة سنداناً معيناً ، مما يُفْهِم أنه ما أراد من هذا التشبيه إلا الصلابة. فطرفة وإن لم يعطنا صورة لهيكل الرأس كما فعل الشماخ ، إلا أنه تفوق على الشماخ بهذه الصورة الدقيقة المبتكرة[1] لملتقى عظام رأس ناقته .

أما عينا ناقة طرفة فهما صافيتان كمرآتين ، غائرتان وسط العظم القوى الصلب كأنهما ثغرتان فى صخر ينبع منه الماء ، نظيفتان من القذى ، سليمتان من المرض ، واسعتان جميلتان ، حادتان كعينى المهاة الخائفة ذات الولد .

والشماخ كطرفة يصف عينى ناقته بالصفاء ويشبههما — مثله — بمرآتين ، إلا أنه يحاول أن يضفى على هذه الصورة التقليدية لوناً من التجديد، بجعل المرآتين من ذهب ، ومن ثم فهما أشد ما تكونان جلاء وبريقاً ، إذا ما تعرض ظاهرهما للشمس . كما يصفهما فى موضع آخر بأنهما غائرتان ، كأنهما نقرتان فى الصخر اجتمع فيهما الماء ، وهى نفس الصورة التى سبقه إليها طرفة تقريباً . ولا يزيد الشماخ بعد هذا شيئاً فى صفة عينى ناقته .

ومن هذا نرى أن وصف طرفة لعينى ناقته أكثر إحاطة وشمولا من وصف

---

(١) «كان الأصمعى يقول : لم يأت أحد بهذا التشبيه غير طرفة» (ديوان طرفة : هامش ص٤١) .

الشماخ لهما ، وبذلك استطاع طرفة أن يرسم صورة دقيقة لعينيها ، فيها من عناصر الجمال أكثر مما فى صورة الشماخ .

وكان بارعاً فى تصويره لاتساع عينى ناقته وجمالهما وحدتهما ، فلم يكتف بتشبيههما بعينى البقرة الوحشية عامة ، بل خصص هذه البقرة بأنها مذعورة ذات ولد ، وبذلك أكسب المعنى الذى أراده لوناً من المبالغة زادته جمالا وطرافة .

وننظر فى وصف طرفة لأذنى ناقته ، فنجد أنهما حادتا السمع أثناء سيرها بالليل ، لا يخفى عليهما صوت مهما انخفض ، فهما تصدقان فى سمعه ، كما تصدقان فى سمع الصوت المرتفع ، وهما فى رهافة سمعهما كأذنى ثور انفرد عن القطيع فهو شديد الحذر والتيقظ .

والشماخ فى وصف أذنى ناقته كطرفة أيضاً ، يمتدح فيهما حدة السمع ، ودلالتهما على كرم ناقته ونجابتها ، لبياضهما ، وإن فصّل طرفة وأوجز الشماخ ، وتفصيل طرفة أفاد المعنى قوة بهذه الصورة التى خصص فيها الثور الذى شبه به بكونه منفرداً ، وهو إذا كان كذلك كان أشد ما يكون يقظة وحذراً ، فهو لا يفتأ يتوجس ، ويحدد السمع .

وكما يذكر طرفة فى مطلع أبياته فى الناقة أنه يسلى همه بالسفر عليها . فيقول :

وإنى لأَمضى الهم عند احتضاره بعوجاءَ مرقال تروح وتغتدى

كذلك يفتتح الشماخ وصف ناقته فى كثير من قصائده بهذا المعنى . فيقول :

فسل الهم عنك بذات لوث عُذَافِرة كمطرقة القُيُون

ويقول :

ولما رأَيت الأَمر عرش هَوِيَّةٍ تسلَّيت حاجات الفؤاد بشَمَّرا

وغير ذلك كثير فى شعره .

وكما يختتم طرفة أبياته فى الناقة بقوله :

على مثلها أَمضى إذا قال صاحبى ألا ليتنى أَفْديك منها وأَفْتدى

كذلك ينهى الشماخ وصفه لناقته فى إحدى قصائده بقوله :

على مثلها أقضى الهموم إذا اعترتْ إذا جاش هَمٌّ النفس منها ضَميرُها

هذا ، ولطرفة لغة فى وصف ناقته لا تقل وعورة عن لغة الشماخ ، مما يجعل قارئ شعرهما فى الناقة لا غنى له عن الاستعانة بغريب اللغة ، فالشاعران بدويان يمثلان فى أسلوبهما الحياة البدوية أصدق تمثيل ، كما يفيضان بالشعر بديهة وارتجالا .

ونكتفى بهذا القدر من الموازنة بين وصف طرفة للناقة ، ووصف الشماخ لها ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن لطرفة فى وصف ناقته صوراً ومعانى أخرى لم نتعرض لها ، ليست أقل إبداعاً وجمالا مما ذكرنا له ، ولا نعلم شاعراً ممن تعرضوا لوصف الناقة فى أشعارهم جاراه أو لحق به فيها ، مما يجعله بحق أستاذ الشماخ وغيره من نعات الإبل فى الشعر العربى القديم .

* * *

وصف الناقة فى لامية كل من كعب بن زهير والشماخ :

كعب بن زهير بن أبى سلمى شاعر مخضرم عاصر الشماخ[١] ، وهو يعد من نعات الإبل المجيدين[٢] ، وفى ديوانه شعر كثير يصف فيه ناقته ، وإنما قصدنا بالحديث هنا إلى الموازنة بين وصفه ووصف الشماخ للناقة فى لاميتهما خاصة ؛ لأنه ليس مما يحتمله هذا البحث أن نحاول الموازنة بين الشاعرين فى كل ما ورد لهما من شعر فى الناقة ، وهو كثير ؛ ولأنه يغلب على ظننا أن الشماخ قصد فى وصفه لناقته فى اللامية معارضة وصف كعب لناقته فى لاميته ، لأمور سنذكرها قريباً .

ومن ثم رأينا الاقتصار على الموازنة بين وصفهما للناقة فى لاميتهما ، وخاصة فى المعانى التى تناولاها معاً ، لنرى إلى أى حد أجاد كل من الشاعرين فى تصوير هذه المعانى ، والتعبير عنها .

---

(١) انظر أخباره فى : الأغانى : ١٥/١٤٠ وما بعدها .

(٢) يقول ابن رشيق : « . . وأما نعات الإبل فطرفة فى معلقته [الدالية] من أفضلهم ، وأوس ابن حجر ، وكعب بن زهير ، والشماخ ، وأكثر القدماء يجيد وصفها لأنها مراكبهم .. » (العمدة : ٢/٢٢٧).

يقول كعب فى مطلع لاميته :

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبول متيَّم إثرها لم يُفْدَ مكبول (١)

وبعد أبيات له فى النسيب ينتقل إلى الحديث عن ناقته فيقول (٢) :

١ ـ أَمستْ سعاد بأَرض لا يبلِّغها إلا العتاقُ النجيباتُ المراسيل (٣)
٢ ـ ولن يبلغها إلا عُذافرة فيها على الأَيْن إرقالٌ وتبْغيلُ (٤)
٣ ـ من كل نضَّاخةِ الذِّفرى إذا عرقت عُرْضَتُها طامِسُ الأَعلام مجهول (٥)
٤ ـ ترمى الغيوب بعيْنَى مفرد لَهَقٍ إذا توقَّدت الحُزَّان والميلُ (٦)
٥ ـ ضخمٌ مُقَلَّدها فَعْمٌ مقيَّدُها فى خَلْقها عن بَنَات الفحل تفضيل (٧)
٦ ـ غلباءُ وجناءُ علكومٌ مذكرة فى دَفِّها سَعَةٌ قدَّامها مِيلُ (٨)
٧ ـ وجلدُها من أُطُومٍ ما يؤيِّسُه طِلْحٌ بضاحية المتنَيْن مهزول (٩)

---

(١) ديوانه (برواية السكرى) ص : ٦ . وشرح بانت سعاد : ص ٨ .

(٢) ديوانه (برواية السكرى) ص : ٩ — ١٨ ما عدا الأبيات ٦ ، ٧ ، ١٠ هنا ، فقد أثبتناها من رواية ابن هشام فى : شرح بانت سعاد .

(٣) المراسيل : جمع : مرسال : مفعال من قولهم : ناقة مرسلة : إذا كانت سريعة وضع اليدين فى السير .

(٤) عذافرة : ناقة عظيمة صلبة . الأين : الإعياء والتعب . الإرقال : ضرب من السير السريع . التبغيل : ضرب آخر منه .

(٥) الذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة والبعير ، وهى أول ما يعرق منهما ، عرضتها : همتها . طامس الأعلام : أى طريق انمحت أعلامه .

(٦) الغيوب : جمع غيب . مفرد : أى ثور وحش منفرد . لهق : شديد البياض . الحزان : جمع حزن : وهو الغليظ الصلب من الأرض . الميل : جمع ميلاء : وهى العقدة الضخمة من الرمل .

(٧) ضخم مقلدها : أى غليظة الرقبة . فعم مقيدها : ممتلئة الساق .

(٨) غلباء : غليظة الرقبة . وجناء : عظيمة الوجنتين ، والمراد : أنها ضخمة . علكوم : شديدة . الدف : الجنب . قدامها ميل : يريد أن عنقها طويل .

(٩) أى جلدها قوى شديد الملاسة لسمنها وضخامتها ، فالقراد المهزول من الجوع لا يثبت عليها ، ولا يلتزق بها . الأطوم : سلحفاة بحرية غليظة الجلد . ما يؤيسه : مايؤثر فيه . الطلح : القراد . ضاحية المتنين : المراد ما برز من متنيها للشمس .

٨ – حرفٌ أَخوها أَبوها من مُهجَّنَة ... وعمّها خالها ، قوداء شِمْليلُ (١)

٩ – يمشى القراد عليها ثم يُزْلِقه ... منها لَبَانٌ وأَقرابٌ زهاليل (٢)

١٠ – عيْرانةٌ قُذِفت بالنَّحْض عن عُرُضٍ ... مرفقها عن بنات الزَّور مفتول (٣)

١١ – كأَن ما فات عينيها ومذبحها ... من خَطْمها ومن اللَّحيين بِرْطِيل (٤)

١٢ – تُمِرُّ مثل عسيب النخل ذا خُصَلٍ ... فى غارز لم تخوَّنْه الأَحاليل (٥)

١٣ – قَنْواء فى حرتيها للبصير بها ... عتق مبين وفى الخدين تسهيل (٦)

١٤ – تَخْدِى على يَسَراتٍ وهى لاحقةٌ ... ذوابل مَسُّهُنَّ الأَرض تَحْلِيلُ (٧)

١٥ – سمر العُجَايات يتركن الحصى زِيَماً ... لم يَقِهِنَّ رءوس الأُكْم تَنْعِيلُ (٨)

---

(١) حرف : قوية صلبة مثل حرف الجبل ، وهو القطعة الخارجة منه . أخوها أبوها .. لخ. يجوز أن يكون المراد تشبيه أخيها بأبيها وعمها بخالها فى الكرم والنجابة ، ويجوز أن يكون المراد : أنها من إبل كرام فبعضها يحمل على بعض حفظا للنوع (راجع فى صورة هذا النسب – على الوجه الثانى – : شرح بانت سعاد : ٥٦ ، وشرح ديوان كعب برواية السكرى : ص ١١) .

(٢) اللبان : الصدر . أقراب : خواصر ، مفرده : قرب – بوزن القرب ضد البعد – زهاليل : ملس ، والواحد : زهلول – بوزن عصفور – .

(٣) عيرانة : تشبه عير الوحش فى صلابتها . النحض : اللحم . العرض : الناحية والجانب : أى رميت باللحم من جوانبها ونواحيها ، يعنى : أنها سمينة . بنات الزور : ما حول الصدر وما يتصل به من الأضلاع ، يعنى : مرفقها جاف عن صدرها .

(٤) يعنى بقوله : « كأن ما فات عينيها . . » إلخ : رأسها . برطيل : معول من حديد ، أو حجر مستطيل .

(٥) مثل عسيب النخل : أى ذنبا من جريد النخل الذى لم ينبت عليه الخوص . غارز : المراد به هنا : الضرع . لم تخونه : أصله لم تتخونه : أى لم تتنقصه . الأحاليل : جمع إحليل : والمراد به هنا مخرج اللبن من الضرع . يعنى : أنها حائل لا تحلب ، وذلك أقوى لها على السير .

(٦) قنواء : يعنى : أن فى أنفها احديداب . حرتيها : أذنيها .

(٧) تخدى : تسرع . يسرات : قوائم خفاف . وهى لاحقة : الضمير لليسرات ، لاحقة ، ضامرة حفيفة ، وكذلك : ذوابل ، أى ليست برهلة . مسهن الأرض تحليل : يريد : أنها سريعة فهى ترفع قوائمها عن الأرض بسرعة ، وأصل التحليل : أن يحلف الإنسان على الشىء ليفعلنه فيفعل منه اليسير ليتحلل من قسمه .

(٨) العجايات : عصب قوائم الإبل والخيل المتصل بالخف والحافر ، زيما : متفرقا ، يعنى : أنها لشدة وطئها الأرض تفرق الحصى . لم يقهن .. إلخ : يعنى : أنها لا تحفى فتفتقر إلى النعل ، يصف أخفافها بالصلابة .

١٦ ـ يوماً يظل به الحرباء مُصْطَخِماً كأَن ضاحيه بالنار مملول [1]
١٧ ـ كأَن أَوب ذراعيها وقد عرقت وقد تلفع بالقُور العَسَاقِيلُ [2]
١٨ ـ وقال للقوم حادِيهم وقد جعلت وُرْقُ الجَنَادِب يركُضْن الحصى :قِيلُوا [3]
١٩ ـ شدَّ النهار ذراعا عيطل نَصَفٍ قامت فجاوبها نُكدٌ مثاكيلُ [4]
٢٠ ـ نوَّاحةٌ رخوة الضَّبْعَيْن ليس لها لمَّا نَعَى بِكْرها الناعون معقول [5]
٢١ ـ تفْرى اللَّبان بكفَّيْها ومِدْرعُها مُشقَّقٌ عن تَراقِيها رعابيلُ [6]

ويقول الشماخ فى مطلع لاميته :

بانت سعاد فنوم العين مملول وكان من قصر فى عهدها طول [7]

وبعد بيتين آخرين فى النسيب ينتقل إلى وصف ناقته فيقول [8] :

وقد تلاقى بى الحاجات دَوْسرةٌ فى خَلْقها عن بنات الفحل تفضيل
غَلْباءُ رَكْباءُ عُلكوم مذكَّرةٌ لِدَفِّها صَفْصفٌ قُدَّامُها مِيلُ
ما إن يزال لها شأْوٌ يقوِّمها مجرّبٌ مثل طُوطُ العِرْق مجدول
تَمَّ لها ناهضٌ فى صدرها تَلِعٌ وحارِكٌ فى قناة الصُّلْب مَعْدول
كأَنَّ ما فات لَحْيَيْها ومَذْبحها مُشَرْجَعٌ من عَلاَة القَينْ ممطول

---

(١) هذا البيت مؤخر على ما بعده فى شرح بانت سعاد . المصطخم : القائم من الحر . كأن ضاحيه . . إلخ : أى كأن الحرباء قد شوى بالنار من شدة حر الشمس .

(٢) أوب ذراعيها : سرعة تقلب يديها فى السير . القور : جمع قارة : جبل يرتفع طولا ولا يرتفع عرضاً . العساقيل : السراب .

(٣) الجنادب : جمع جندب : وهن ضرب من الجراد . يركضن : يدفعن . قيلوا : أمر من القائلة .

(٤) شد النهار : ارتفاعه : أى وقت الهاجرة . . عيطل : أى امرأة طويلة حسنة . نصف : بين الكهلة والشابة .

(٥) رخوة الضبعين : يريد : أنها شديدة الحركة والالتدام ، والضبعان : العضدان . بكرها : أول ولدها . معقول : عقل .

(٦) تفرى : تشق . اللبان : الصدر وما حوله . رعابيل : متمزقة .

(٧) الديوان : ١٤/ ١١ .

(٨) الديوان : ١٤/ ٤ – ١٦ والبيت الزائد عقب شرح البيت (٥) فى الهامش .

ترمى الغيوبَ بمرآتين من ذهب صَلْتين ضاحيهما بالشمس مصقول
وحُرَّتين هجان ليس بينهما إذا هما اشتأَتا للسمع تمهيل
فى جانبيْ دُرَّة زهراءَ جاءَ بهـا مُحَمْلَجٌ من رجال الهند مجدول
على رجَامَيْن من خُطَّاف ماتحة يهدى صدورهما أُرقٌ مراقيل
وجلدُها من أَطُوم ما يُوَيِّسه طِلحٌ كضاحية الصيْداءِ مهزول
تذبُّ ضيفاً من الشَّعْراء منزله منها لَبَانٌ وأَقْرابٌ زهاليل
أَوْ طَىٍّ ماتحة فى جِرْمها حَشَفٌ ومُنْشَنًى من شَوىٍّ الجلد مملول
تهْوِى بها مُكْرِبَاتٌ فى مرافقها فُتْلٌ صِيَابٌ مَياسِيرٌ معاجيل
يَدا مَهَاةٍ ورِجْلاَ خَاضبٍ سَنِقٍ كأَنه من جَنَاهُ الشَّرْىَ مَخْذُولُ

وغنى عن البيان أن القصيدتين متفقتان فى الوزن والقافية ، كما أنهما تتشابهان فى المطلع ، وأبيات كل منهما فى وصف الناقة تكاد تتفق فى معظم المعانى ، بل فى كثير من الألفاظ .

فكعب يبدأ أبياته فى وصف ناقته ببيان أن صاحبته صارت بأرض بعيدة ، لا يبلغها إلا ناقة عظيمة ، صلبة ، سريعة العدو .

ويبدأ الشماخ بما يقرب من هذا المعنى ، فصاحبته قد فارقته ، وبعدت بها الديار ، ولن يمكنه من الوصول إليها إلا ناقته الضخمة الشديدة ، التى كثيراً ما قضى عليها حاجاته .

ووصف كعب لشدة ناقته وصلابتها ، وقدرتها على السفر ، أقوى من وصف الشماخ ، فهو لم يكتف فى هذا الوصف بقوله : « عذافرة » — كما اكتفى الشماخ بقوله : « دوسرة » — بل أكد ذلك بقوله : « فيها على الأين إرقال وتبغيل » ، فكان قوله هذا كالتدليل على ما وصفها به فى قوله : « عذافرة » من الشدة والصلابة .

ويصف كعب عينى ناقته وقت توقد الأرض وشدتها بالاتساع ، وحدة النظر ، ويشبهها فى ذلك بعينى ثور وحشى قد انفرد عن أنثاه .

أما الشماخ فناقته « ترمى الغيوب » بعينيها كما يقول كعب تماماً ، إلا أنه يصف هاتين العينين بالصفاء والبريق ، ويشبههما فى ذلك بمرآتين ملساوين من ذهب ، تعرض ظاهرهما للشمس .

وصورة الشماخ، وإن أضفت على عينى ناقته جمالا وروعة ، إلا أنها لا تخدم المعنى الذى يفهم من قوله : « ترمى الغيوب » وهو الوصف بحدة النظر ، بينما نرى كعب يؤكد هذا المعنى ويبرزه ، فيذكر أن ناقته حادة النظر، على اشتداد الحر ، وصعوبة الطريق ، فأفاد أنها فى غير هذا الوقت أحد نظراً . كما أبرز هذا المعنى وأضاف إليه وصفهما بالاتساع والجمال بهذه الصورة الدقيقة لعينى ثور وحشى منفرد ، فعيناه أشد ما تكونان اتساعاً ، وحدة نظر حينئذ .

وناقة كعب تفضل غيرها من النوق فى الخلقة ، فهى غليظة الرقبة ، ممتلئة الساقين . عظيمة الوجنتين ، شديدة، تشبه البعير فى الخلقة ، واسعة الجنبين لضخامتها ، طويلة العنق ، جلدها غليظ ، لا يؤثر فيه القراد مع شدة حرصه على الالتزاق بجلدها؛ لما به من الجوع الذى أهزله .

ويتناول الشماخ أكثر هذه المعانى بنفس ألفاظها ، مع قليل من الاختلاف ، كقوله : « ركباء » بدل قول كعب : « وجناء » وقوله : « لدفها صفصف » بدل « فى دفها سعة » وقوله : « كضاحية الصيداء » بدل « بضاحية المتنين » .

ويكرر كعب بعض المعانى . كقوله يصفها بغلظ الرقبة : « غلباء » بعد قوله فى البيت السابق « ضخم مقلدها » ، وقد عاب عليه بعض القدماء هذا القول الأخير ؛ لأن المقلد هو موضع القلادة ، والنجائب من الإبل توصف برقة المذبح[1] .

وقوله يصفها بطول العنق : « قوداء » فى البيت الثامن ، بعد قوله « قدامها ميل » فى البيت السادس . ولا يقع الشماخ فى مثل هذا .

ويصف كعب صدر ناقته وخاصرتيها بالملاسة ، حتى إن القراد لا يتمكن من الالتزاق بها لشدة ملاستها . وهذا المعنى نفسه نجده عند الشماخ بلفظه ، إلا أنه لا يلحق بكعب فى تأكيده للمعنى بقوله : « يمشى القراد عليها ثم يزلقه » فقد دلل

---

(١) ممن عاب عليه ذلك : الأصمعى وأبو هلال العسكرى (انظر : شرح بانت سعاد : ٥٢) .

على شدة ملاسة صدرها وخاصرتيها بأن القراد لا يثبت عليها . أما الشماخ فيقرر الوصف ولا يؤكده ، فهو يذكر أن ناقته تطرد هذا الصنف من الذباب الذى يقع على صدرها وخاصرتيها الملس فيؤذيها ، ووقوع هذا الذباب على هذه المواضع منها لا يدل على شدة ملاستها ، وإنما يفيد رقتها ؛ لأن هذا الذباب لا يقع إلا على مراق الجلد .

ويتحدث كعب عن رأس ناقته فيصفه بالضخامة والصلابة ، مشبهاً الجزء الأسفل منه الذى يشمل الخطم واللحيين بمعول من حديد أو بحجر ضخم مستطيل .

وكذلك يصف الشماخ رأس ناقته مع الاتفاق فى بعض الألفاظ مع كعب ، إلا أن الشماخ يدلل على ضخامة رأسها ، وصلابته ، بتشبيهه للجزء الأعلى منه بسندان مطول ممدود لا حرف لنواحيه ، والصورة عند الشماخ أدق ، وأدل على الضخامة والصلابة من الصورة عند كعب .

ويصف كعب أنف ناقته بالاحديداب ، وهو عيب فى الإبل كما يقولون[1] ، ويهمل الشماخ وصف أنف ناقته فيما لدينا من شعره فى الناقة كله .

ويتناول كعب وصف أذنى ناقته ، فيمتدح دلالتهما على كرم ناقته ونجابتها ، ولا يبين وجه هذه الدلالة . أما الشماخ فيمتدح فيهما ما امتدحه كعب ويبين بعض وجوه دلالتهما على ذلك ، فيصفهما بالبياض وحدة السمع .

وأخيراً يصف كل من الشاعرين قوائم ناقته وخفتها وسرعتها ، أما كعب فيذكر أنها خفاف لا ترهل فيها ، ولذلك فهى سريعة الحركة ، تكاد لا تمس الأرض أثناء العدو ؛ لخفتها التى تمكن الناقة من رفعها عن الأرض بسرعة ، وهذه القوائم مع خفتها وذبولها قوية تفرق الحصى لشدة وطئها الأرض ، وعجاياتها شديدة صلبة كالرماح السمر ، وأخفافها صلبة أيضاً لا تنال منها الأرض مهما حزنت ، ومن ثم فهى لا تصاب بالحفا الذى يحوجها إلى النعل .

وأما الشماخ ، فيذكر أن قوائم ناقته مشدودة بمرافقها شداً محكماً ، قوية مدمجة

---

(١) انظر : شرح بانت سعاد : ٦٠ .

الخلق ليست برهلة سريعة الحركة ، تلاين فى مشيها لخفتها ، لا تحيد عن القصد ، كما تبادر إلى الوثب فور وضع الراكب رجله فى غرز هذه الناقة .

ولا يخفى أن وصف كعب لقوائم ناقته أشمل وأقوى فى الدلالة على المراد من وصف الشماخ ، إلا أن قول الشماخ « تهوى بها » أدل على السرعة من قول كعب : « تخدى » على أن كعباً قد وفى المعنى بقوله : « مسهن الأرض تحليل » .

ويمضى الشماخ فى وصف ناقته فيشبهها تارة بالنعامة والظليم ، ويستطرد إلى وصفهما وصفاً يؤكد ضمناً سرعة هذه الناقة ، وتارة بالأتان التى يصفها إلى آخر القصيدة .

أما كعب فينتقل بعد أبياته فى الناقة إلى غرضه الذى قصد إليه ، وهو الاعتذار للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومدحه ومدح صحابته رضوان الله عليهم .

ومما تقدم يتبين لنا أن بين القصيدتين معارضة ، أما كون الشماخ هو الذى أخذ عن كعب وعارضه ، فهذا هو ما يغلب على ظننا لأمور منها :

١ — أن كعباً كان ذائع الصيت والشهرة أكثر من الشماخ ، كما أن قصيدته نالت من الشهرة والسيرورة — لما فيها من مدح الرسول (ص) — ما لم ينله شعر الشماخ كله ، والمعقول أن يحاول الأقل شهرة معارضة الأكثر فيها التماساً للشهرة .

٢ — أن كعباً كان أحد هؤلاء الشعراء الذين كانوا يمثلون اتجاهاً معيناً فى شعرهم أو يمثلون — كما يقول مؤرخو أدبنا المحدثين — مدرسة لها خصائصها المشتركة فى شعر شعرائها ، والتى من أبرزها الصقل والتهذيب ، ومعاودة النظر فى الشعر ، والتفكير فيه[1] ، وقد كان شأن هذه المدرسة عظيماً ، فهى ذائعة الصيت ، رائجة البضاعة ، وقد رأينا أن الشماخ قد عنى فى بعض موضوعات شعره بمعارضة أستاذيها أوس بن حجر وزهير ، والأقرب إلى التصور أن يحاول معارضة أحد أعلامها من معاصريه وهو كعب بن زهير ، رغبة منه فى إثبات مقدرته على قول الشعر والإجادة — بديهة وارتجالا — فيما أجادوا فيه على روية وتفكير ومعاناة .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن وصف كعب لناقته فى لاميته — جملة — أجود من وصف الشماخ لناقته فى لاميته ، بوجه عام .

---

(١) انظر : فى الأدب الجاهلى : ٢٦٧ وما بعدها .

وبعد :

فلعله قد اتضح من هذه الموازنات السريعة مدى تفوق الشماخ وبراعته فى وصف القوس والحمر الوحشية ، وأنه فى هذا الوصف لا يقل فحولة عن أوس بن حجر وزهير — فى هذين الموضوعين — إن لم يبزهما، مع تفرده دونهما بمزية الارتجال ، مما يجعله أهلا لما خلعه عليه الأقدمون ، حيث عدوه من أوصف الناس للحمر والقوس كما تقدم .

٢ — آراء للنقاد القدامى فى شعر الشماخ

عرض بعض النقاد القدماء لبعض شعر الشماخ بالدرس ، والموازنة ، والبحث . وقد يكون من المفيد أن نضم آراء هؤلاء النفر من النقاد ذوى البصر بالشعر ، والعلم بأسرار العربية ومرامى الكلام إلى رأينا فيه ، سعياً وراء استيفاء البحث فى نواحى شاعرية الشماخ .

نظر هؤلاء النقاد فيما نظروا فيه من شعر الشماخ :

(ا) فأشار بعضهم إلى ما أخذه الشماخ من معانى غيره من الشعراء السابقين .

(ب) وعنى آخرون ببيان ما له من معان مبتكرة سبق إليها، فنالت إعجاب بعض من جاء بعده من الشعراء ، فأخذوها منه ، وضمنوها أشعارهم .

(حـ) واستوقف بعضهم ما رآه فى بعض شعره من مواطن الجمال ، ومخايل الحسن ، فدل عليها ، مسجلا إعجابه بها .

(د) على أن منهم من استرعى نظره ما فى بعض شعره من هنات ، فمضى يكشف عنها ، ويبين الوجه فيها .

(ا)

يقول ابن قتيبة [1] : « وقال امرؤ القيس يصف الناقة :

كأَن الحصى من خلفها وأَمامها إذا نجلتْه رجلها خَذْفُ أَعسرا

---

(١) هو : أبومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزى الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

أخذه الشماخ فقال :

لها منسم مثل المحارة خفة كأن الحصى من خلفه خذف أعسرا »[١]

ومع ذلك. فبيت الشماخ أكثر معنى وأوجز لفظاً من بيت امرئ القيس ، فقد عبر فى الشطر الثانى من بيته عما عبر عنه امرؤ القيس فى بيته كاملا – تقريباً – وزاد الشماخ فى الشطر الأول معنى جديداً ، وهو تشبيه منسم ناقته بالمحارة ، فإن كان لامرئ القيس فضل السبق إلى الصورة التى أخذها عنه الشماخ ، فللشماخ فضل الإيجاز والزيادة فى المعنى .

ويقول ابن قتيبة فى ترجمته للمسيب بن علس[٢] : « ومما سبق إليه فأخذ منه قوله فى الناقة :

مَرحَتْ يدَاها للنَّجاء كأَنما تكرو بكفَّىْ ماقِطٍ فى قاع[٣]

أخذه الشماخ فقال :

كأَن أَوْبَ يديْها حين عاودَها أَوْبُ المِرَاح وقد هَمُّوا بترحال

مقط الكُرِين على مكنوسة زَلَف فى ظهر حنَّانةِ النِّيريْن مِعْوال[٤] » .

ولا يخفى أن قول المسيب أوجز لفظاً ، إلا أن قول الشماخ أقوى فى الدلالة على المراد ، حيث شبه حركة يدى ناقته فى سهولتها وتتابعها السريع أثناء عدوها ، بتلك الحركة الناشئة عن ضرب أرض ملساء كالمرآة بالكرين ، وإذا كانت الأرض التى تضرب بالكرة كذلك كان تتابع حركة الكرة فى سقوطها وارتفاعها أسرع وأسهل ، أما القاع – فى قول المسيب – فلا يلزم أن تكون ملساء .

وفى خزانة الأدب[٥] للبغدادى عند الكلام على قول الشماخ يمدح عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

---

(١) النص من : الشعر والشعراء : ١/٧٨ – ٧٩ . والبيت فى ديوان امرئ القيس : ٥/٢٥ .
(٢) الشعر والشعراء : ١/١٢٩ .
(٣) تكرو : تلعب بالكرة . الماقط : الذى يضرب بالكرة الحائط ثم يأخذها . القاع : الأرض السهلة المطمئنة التى انفرجت عنها الجبال والآكام .
(٤) ملحق الديوان : ٤٠/٣ – ٤ .
(٥) ١/٤٥٥ . و« أوس » فى بيت بشر الثانى ، هو : أوس بن حارثة بن لأم الطائى ، ولبشر فيه مدائح وأهاج مروية فى ديوانه ، وفى مختارات ابن الشجرى : القسم الثانى : ١٩ – ٢٢ ، ٢٤ – ٢٦ .

« قال الحاتمى : أخذ الشماخ هذا من قول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوماً وقصر مبتغوها عن مداها
وضاقت أذرع المثرين عنها سما أوس إليها فاحتواها » .

ويكفينا فى بيان فضل قول الشماخ على قول بشر ما ذكره ابن سنان الخفاجى فى قوله[1] :

« ولحمد الإيجاز فضل أحد الشاعرين على صاحبه ، إذا كانا قد اشتركا فى معنى ، وأوجز أحدهما فى ألفاظه أكثر من الآخر ، ولهذا قدموا [قول] الشماخ ابن ضرار :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

على قول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوماً .... [البيتين] ، وإن كان ابن أبى خازم سبق الشماخ إلى المعنى إلا أنه جاء به فى بيتين ، واختصره الشماخ فأتى به فى بيت واحد » .

(ب)

يقول أبو هلال العسكرى[2] : « ومن أحسن ما قيل فى حسن الوجه قول عمر ابن أبى ربيعة :

فلما تواقفنا وسلمت أقبلتْ وجُوهٌ زهاها الحسن أن تتقنَّعا

أخذه من قول الشماخ :

لها شَرَقٌ من زعفران وعنبر أطارت من الحسن الرداء المحبرا »

ويقول أبو هلال أيضاً[3] : « وأخذ البحترى قول الشماخ :

وقربت مُبْراة كأَن ضلوعها من الماسخيَّاتِ القِسِىِّ الموترا

---

(١) سر الفصاحة : ٢٠٥ .

(٢) هو : الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ . والنص فى : ديوان المعانى : ١/٢٣٠ .

(٣) الصناعتين : ١٦٨ .

فزاد عليه فقال :

كالقسى المعطفات بل الأسهم مبريَّة بل الأوتار

وهذا ترتيب مصيب من أجل أنه بدأ بالأغلظ ثم انحط إلى الأدق »[١] .

ويقول أبو هلال أيضاً[٢] :

« وأخذ الفرزدق قول الشماخ :

ولاقى بصحراء الإهالة ساطعاً من الصبح لما صاح بالليل نفَّرا[٣]

فأخذ معنى الشطر الثانى وقال :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار ».

ويقول ابن قتيبة فى ترجمته للشماخ[٤] :

« ومما سبق إليه فأخذ منه قوله :

تخامصُ عن برد الوشاح إذا مشت تخامُصَ حافى الخيل فى الأمعز الوجى

أخذه ذو الرمة فقال يصف إبلا :

تشكو الوجى وتَجافَى عن سَفَائِفِها تجافى البيض عن بَرْد الدَّماليجِ »[٥]

وفى الأشباه والنظائر للخالديين[٦] :

« وقال الشماخ :

تخامصُ عن بَرْد الوِشَاحِ إذا مشتْ تَخَامُصَ حافى الخيل فى الأمعز الوَجى

أخذه جرير فقال :

إذا مشت لم تبتهر وتأوَّدتْ كما انآد من خيل وجٍ غير مُنْعَل ».

---

(١) انظر تعليقنا على هذه الرواية فى هامش الديوان : ١٢/٥ .

(٢) الصناعتين : ٢٤٣ .

(٣) انظر تعليقنا على هذه الرواية فى هامش الديوان : ٤٣/٥ .

(٤) الشعر والشعراء : ٢٧٦/١ .

(٥) الوجى أن يرق الحافر أو الخف فتتأذى الدابة بالحصى . سفائفها : جمع سفيفة : بطان عريض يشد به الرحل . الدماليج : جمع دملوج — بضم الدال — : المعضد ، يعنى : كالسوار يلبس فى العضد .

(٦) (مخطوط) : ١٢٤ .

ويقول أبو أحمد العسكرى[١] :

« قال الشماخ [يصف الناقة] :

وتَقْسِم طَرْفَ العيْن نِصْفاً أمامها ونِصْفاً تراه خشية السَّوْط أزْورا

أخذه مسلم بن الوليد فقال :

تمشى العِرَضْنَة قد تقسَّم طرفَها وضَحُ الطريق وخوفُ وقعِ المُحْصَد »[٢]

ويقول ابن رشيق [٣] — بعد أن روى قول الشماخ فى مدح عرابة الأوسى :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عَرَابة فاشرقى بدم الوتين

« ومما قصر فيه الآخذ عن المأخوذ منه . . قول أبى دهبل الجمحى فى معنى بيت الشماخ :

ياناق سيرى واشرقى بدم إذا جئت المغيرة

سيثيبنى أخرى سوا ك وتلك لى منه يسيرة

فأنت ترى أين بلغت همته !! » .

ويقول أبو عبيد البكرى[٤] :

« أنشد أبو على [القالى] لذى الرمة :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر

---

(١) هو : الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى شيخ أبى هلال توفى سنة ٣٨٢ هـ . والنص فى : المصون فى الأدب : ٧٠ . (٢) العرضنة : مشية فيها نشاط . المحصد : السوط .

(٣) هو : أبو على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . والنص فى العمدة : ٢/٢٢٤ وانظر أيضا : خزانة الأدب للبغدادى : ١/٤٥٣ وقال ص ٤٥٤ « وتبعه [أى تبع الشماخ] أيضاً ابن أبى العاصية السلمى ، فإنه لما قدم على معن بن زائدة بصنعاء نحر ناقته على بابه ، فبلغه ذلك فتطير ، وأمر بإدخاله فقال : مالصنعت ؟ ! قال : نذرت — أصلحك الله — قال : وما هو ؟ فأنشده من أبيات :

نذرعلى لئن لقيتك سالما أن يستمر بها شفار الجازر

فقال معن : أطعموا من كبد هذه المظلومة » .

(٤) هو : عبد الله بن عبد العزيز البكرى المتوفى بقرطبة سنة ٤٨٧ هـ . والنص فى سمط اللآلى : ١/٢١٨ وانظر أيضا : شرح مقامات الحريرى (للشريشى) : ٢/٣٦٤ — ٣٦٥ ، والأشباه والنظائر (للخالديين) مطبوع : ١/٢٢١ ، والصناعتين : ١٥٩ . وخزانة الأدب (البغدادى) ١/٤٥٣ . وشرح شواهد المغنى (البغدادى — مخطوط) ٢/٢٥٤ .

. . . وإنما تبع ذو الرمة فى هذا الشماخ ، فإنه قال يمدح عرابة بن أوس :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عَرَابة فاشرقى بدم الوتين » .

ومن هذا نرى أن الشماخ قد سبق إلى بعض المعانى المبتكرة التى تأثر بها من جاء بعده من الشعراء ، وصادفت هوى فى قلوبهم فأخذوها منه ، وضمنوها أشعارهم .

(ح)

أما هؤلاء الذين تذوقوا بعض شعره ، وفطنوا لما فيه من جمال المعانى ، أو روعة الخيال . . . أو غير ذلك من محاسن القافية أو الوزن فمنهم :

— قدامة بن جعفر[١] ، الذى يقول[٢] :

« ثم من الشعراء . . من يجمل المديح فيكون ذلك باباً من أبوابه حسناً أيضاً لبلوغه الإرادة ، مع خلوه عن الإطالة ، وبعده عن الإكثار ، ودخوله فى باب الاختصار » ويذكر أمثلة لذلك منها قول الشماخ فى عرابة الأوسى :

رأيت عَرَابة الأَوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رُفِعتْ لمجد تلقَّاها عَرَابةُ باليمين

وقد مر بنا تفصيل وجوه الإجادة والحسن فى هذين البيتين[٣] .

ويقول قدامة أيضاً[٤] :

« وممن شاقه البرق فأحسن ما مر به من الشوق . . » ويروى أمثلة لذلك منها قول الشماخ :

رأيتُ سنا برقٍ فقلتُ لصاحبى بعيدٌ بِفَلْجٍ ما رأيتُ سحيق

فبات مُهمًّا لى يذكِّرنى الهَوَى كأنى لبرق بالحجاز صديق

---

(١) هو : أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد المتوفى سنة ٣٣٧ هـ .

(٢) نقد الشعر : ٧٤ — ٧٦ . وانظر أيضاً : البديع فى نقد الشعر : ٢٩١ .

(٣) راجع : ص ٢٣٩ — ٢٤٠ من هذا الكتاب .

(٤) نقد الشعر : ١٢٥ .

وبات فوادى مُسْتَخَفًّا كأنه خوافى عُقابٍ بالجناح خفوق

فقد أحسن الشماخ التعبير عن تجربته النفسية حين رأى البرق ، فهيج مرآه ذكريات الهوى فى قلبه ، فإذا هو مهموم ، مسهد العين ، مستطار اللب ، خفاق القلب .

وقد أعجب قدامة — إلى جانب ذلك — ببعض الصور التشبيهية فى شعر الشماخ ؛ لما رآه فيها من دقة التشبيه ، وإصابته ، وجودة تصويره للمعنى . فقال[1] :

« ومن جيد التشبيه قول الشماخ يذكر لواذ الثعلب من العقاب :

تلوذُ ثعالبُ الشَّرفَيْن منها كما لاذَ الغريمُ من التَّبيع

وقد يختلف اللواذ بحسب اختلاف اللائذين ، فأما التبيع فهو ملح فى طلب الغريم ، لفائدة يرومها منه ، والغريم بحسب ذلك مجتهد فى الروغان فى اللواذ خوفاً من مكروه يلحقه ، وكذلك الثعلب والعقاب سواء ؛ لأن العقاب ترجو شبعها ، والثعلب يخاف موته . . وقال الشماخ [فى الأتان والحمار] :

كأَن على أَوْرَاكها من لُعَابه وَخِيفَةَ خِطْمِيٍّ بماء مُرَجْرَج

فشبه لعاب الفحل إذا ظهر على أوراك الأتن عند كدمه إياها بالخطمى ، وهو شبيه به فى قوام الثخن ، وفى الرغوة ، وفى اللون أيضاً ، وذلك أن الحمار إنما يكثر كدمة الأتن فى الربيع عند خضرة الرُّطْب ، وشره فى ذلك الوقت .

وقد أحسن الشماخ أيضاً فى قوله حين شبه أضلاع الناقة حين براها السير بالقسى الموتَّرة :

فقربتُ مُبْراةً كأَن ضلوعَها من الماسخيات القِسِيَّ الموتَّرا

وقد أحسن الشماخ فى هذا التشبيه من قبل اجتماع الأضلاع والقسى الموترة فى الشكل والتوتر ، والأعصاب ، والأوتار ، ولم يرد إلا الشكل فقط ، وقد أتى على ما فيه » .

وقد أحسن قدامة فى تعليله لحسن التشبيه ، فى هذه الأبيات ، بما لا يدع مجالا للقول بعده . كذلك أعجبه قول الشماخ يصف رسوماً دارسه :

عفتْ غير آثار الأَراجيل تَرْتَمِى تَقَعْقَعُ فى الآباط منها وفاضُها

(١) نقد الشعر : ١١٠ — ١١٢ .

وقد سبق قوله فى ذلك فلا نعيده هنا[١] . وقد شاركه فى الإعجاب بهذه الصورة — لما فيها من الدقة فى إبراز الموصوف — أبو هلال العسكرى[٢] .

— وأبو هلال هو الذى استحسن أبياته فى وصف عمل الناقة بيديها ورجليها ، وسرعة تحريكهما فى السير ، وتشبيهها فى ذلك بامرأة مدلة بجمالها وحسبها ، أقبلت تعتذر وتدفع عن نفسها ما رماها به ابن ضرتها ، فهى تجرد ذراعيها وتحركهما بسرعة[٣] .

ولا شك أن الشماخ قد أجاد فى تعبيره عن المعنى الذى أراده ، من وصف ناقته بالسرعة لتحريكها ذراعيها فى سهولة وتتابع ، بهذه الصورة كما أسلفنا[٤] ، كما أبدع فى وصفه لحسن المرأة بقوله : « أطارت من الحسن الرداء المحبرا » .

كما أعجبه قوله فى وصف رامٍ[٥] :

قليلُ التِّلادِ غير قوسٍ وأسهم كأَن الذى يَرْمِى من الوحش تَارِزُ

فقد أحسن فى تصويره لخوف الوحش من الصياد لعلمه بنكاية مرماه ، ذلك الخوف الذى يشل حركته ، فكأنه يابس ميت قبل أن يرميه .

— أما الزمخشرى[٦] فقد راقه من شعر الشماخ قوله فى الناقة :

يرُدُّ أَنابيبَ البُغَامِ جرانُها كما ارتدَّ فى قوْس السَّراءِ زفيرها

ويعلل إعجابه بهذا القول فيقول :[٧] « جعل بغامها مزماراً ، حتى جعل له أنابيب وهو من لطيف المجاز » .

— ويرى أبو عبيد البكرى[٨] : أن من حسن ما ورد فى اليمين الفاجرة قول الشماخ :

يقولون لى : فاحلف ولست بحالف أخادعهم عنها لكيما أَنالها

ففرَّجتُ همَّ الصدر منى بِحَلْفةٍ كما شقت الشَّقراءُ عنها جِلالَها

---

(١) راجع : ص ٢١٧ من هذا الكتاب . (٢) الصناعتين : ٩٧ .
(٣) ديوان المعانى : ١٢٥/٢ . والأبيات فى الديوان : ١٥/٥ — ٢٣ .
(٤) راجع : ص ١٨٦ من هذا الكتاب . (٥) ديوان المعانى : ١٠٩/٢ .
(٦) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .
(٧) أساس البلاغة : ٤١٢/٢ . (٨) سمط اللآلى : ٨٨/١ .

ولم يعلل البكرى لما فى هذا القول من حسن ، ولعله أراد ما فى البيت الثانى من حسن تعليل الشماخ لإقدامه وجرأته على هذه اليمين ، بذكر ما كان يعانيه فى هذا الموقف الحرج ، من كرب بسبب تهديد بنى سليم ووعيدهم إياه كما ذكرنا آنفاً[١] ، وربما راقه تصوير الشماخ لهذه اليمين التى « أرسلها عليهم فجأة واضحة بينة سريعة خاطفة ، أذهلت السامعين ، كما تذهل الناظرين حسناء محجبة منيعة ، قد يئس المترقبون من رؤيتها ، فإذا بها تشق حجابها فجأة ، فتطيش أبصارهم من رؤيتها ، واضحة المحيا مشرقة الوجه »[٢] .

ـ وأما ابن طباطبا[٣] : فيروقه من التشبيه ما اتفق فيه طرفاه فى أكثر من معنى ، ويرى أن ذلك مما يكسب التشبيه قوة ، وصدقاً ، والشعر حسناً ، ويروى من أمثلة ذلك قول الشماخ :

لليلى بالعُنَيْزَةِ ضوءُ نارٍ تلوحُ كأنَّها الشِّعْرَى العَبُور

ووجه الحسن عنده فى هذا التشبيه ، أن الشماخ شبه نار الحبيبة التى تراءت له عن بعد بالشعرى العبور ، فى الصورة واللون والحركة والهيئة .

وكذلك يروى قول الشماخ فى الإبل :

وكلُّهن يُبَارى ثِنْى مُطَّرِدٍ كحيَّةِ الماء ولَّى غيْر مطرود

ويعده من تشبيه الشىء بالشىء ، حركة وسرعة ، ويستحسنه من أجل ذلك .

ـ وفى العقد الفريد[٤] : أن الرشيد قال للأصمعى : « أرويت للشماخ شيئاً ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين قال : يعجبنى من قوله هذا :

إذا رَدَّ فى ثِنْىِ الزِّمام ثنتْ له جِراناً كخُوطِ الخَيْزران المُعَوَّجِ

قلت : يا أمير المؤمنين هى عروس كلامه[٥] ، قال : فأيها الحسن الآن

---

(١) راجع : ص ١٢٥ ـ ١٢٦ من هذا الكتاب .

(٢) هامش : طبقات فحول الشعراء : ١١٣ للمحقق .

(٣) هو : أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . وما نذكره له هنا من عيار الشعر : ١٧ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) ٣/٤٠٧ .

(٥) يعنى قصيدته الجيمية التى منها هذا البيت .

من كلامه ؟ قلت : الرائية[١] وأنشدته أبياتاً منها . قال : أمسك » .

كذلك يروى عن الأصمعى أنه قال[٢] : « ما قيلت قصيدة على الزاى أجود من قصيدة الشماخ فى صفة القوس . . » .

فها نحن نرى أن الأصمعى كان يستحسن للشماخ قصائد بأكملها ، لا أبياتاً فقط .

ويروى أيضاً أن الرشيد سأل الأصمعى قائلا[٣] : « أتعرف بيتاً أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقى أثره فى قوله :

كأَنَّمَا مُنْشَنَى أَقْماع ما مَرَطَتْ من العِفَاءِ بِلِيتَيْها ثآليل

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين . » وقد ذكرنا آنفاً سر إعجاب الرشيد بهذه الصورة ، ورأينا فى مدى ما فيها من جمال[٤] .

ــ أما أسامة بن منقذ[٥] : فإنه يختار من شعر الشماخ قوله[٦] يمدح :

فتًى يملأُ الشِّيزَى ويروى سنانه ويضربُ فى رأس الكمىِّ المدجَّج

فتًى ليس بالراضى بأَدْنى معيشةٍ ولا فى بيوت الحىِّ بالمتولِّج

ويعده من المديح الجيد لما فيه من المدح بالصفات الإنسانية ، وهى الكرم والشجاعة وعلو الهمة ، والعفة .

ــ ويعد المفضَّل[٧] قصيدة الشماخ الزائية من المشوبات ــ وهن اللاتى شابهن الكفر والإسلام .

ويعدد أسماء شعراء السبع الطوال ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمشوبات ، وعيون المراثى والملحمات ، ثم يقول : فهذه التسعة والأربعون قصيدة عيون أشعار

---

(١) للشماخ أربع قصائد رائية ، فلا ندرى أيها قصد الأصمعى .

(٢) الشعر والشعراء : ٦٤٢/٢ . وانظر أيضا فحولة الشعراء (الأصمعى) : ٣٩ .

(٣) شرح مقامات الحريرى (الشريشى) : ٢٨٣/٢ .

(٤) راجع : ص ٢٠٥ من هذا الكتاب .

(٥) هو : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

(٦) البديع فى نقد الشعر : ٢٩١ .

(٧) يرجح الدكتور ناصر الدين الأسد أن المفضل هذا هو : أبو عبد الله المفضل بن عبد الله بن محمد بن الحبر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ، ويذهب إلى أنه من رجال القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى (مصادر الشعر الجاهلى : ٥٨٤ وما بعدها) .

العرب فى الجاهلية والإسلام ، ونفس شعر كل رجل منهم[١].

فهذا ناقد آخر من النقاد القدامى يستحسن للشماخ قصيدة بأكملها ، ويعدها من عيون أشعار العرب .

— ويرى قدامة[٢] : أن قول الشماخ الآتى من خير الأمثلة لهذا الضرب البديعى المسمى « بالترصيع » وهو :

رعَيْن النَّدى حتى إذا وقَدَ الحَصَى ولم يَبْق من نَوْءِ السِّماك بُروق

وسر الصنعة فى هذا الباب — كما يقول قدامة — أن تكون مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به . .

كما امتدح قدامة [٣] تكرار « التصريع » فى قول الشماخ :

أَلا نادِيَا أَظْعانَ ليْلى تُعرِّج فقد هِجْن شوقاً ليته لم يُهَيَّج

ثم قال بعد أبيات :

أَلا ادَّلجتْ ليْلاك من غير مدلج هَوى نفسها إذْ أَدْلجت لم تُعَرِّج

ورأى أن تكرار التصريع فى القصيدة الواحدة دليل على اقتدار الشاعر ، وسعة بحره .

وهكذا نرى : أن كلا من هؤلاء النقاد ، قد حكم ذوقه فيما استحسن من شعر الشماخ

وهم إنما يمثلون فى ذلك ذوق عصورهم ، واختلاف مذاهبهم فى نقد الشعر ، وقد نتفق معهم أو نختلف ، ولكنا ما قصدنا إلا إلى بيان مدى ما حظى به شعر شاعرنا من اهتمام القدماء بالنظر فيه ، ودراسته ، ونقده ، ومدى تقديرهم لشاعرية هذا الشاعر .

---

(١) جمهرة أشعار العرب : ٤٥ وما بعدها .

(٢) انظر : نقد الشعر : ٣٢ — ٣٦ .

(٣) المصدر السابق : ٤٢ .

(د)

هذا : ولم يفت بعض النقاد القدامى أن ينبهوا على ما رأوه فى شعر الشماخ من مآخذ عابوها عليه ، وهى — فى مجموعها — ترجع — فى رأيهم — إما إلى جفاء الذوق فى اختيار المعنى ، وإما إلى الخطأ فى قواعد اللغة ، كما ردوا شيئاً منها إلى ارتكاب الضرورات التى يحسن بالشاعر المجيد ألا يشوه شعره باللجوء إليها . . .

على أن بعض هذه المآخذ لم يكن موضع اتفاق بينهم ، فمنهم من أخذها على الشاعر بينما تصدى لهم آخرون ، يردون ما ذهبوا إليه ، ويقفون إلى جانب الشاعر ، ولا يرون فيما عابوه عليه عيباً . وقد حاول كل من الفريقين أن يعلل لذوقه ، أو لوجهة نظره . .

ونحن بدورنا سوف نحاول أن ندلى بدلونا بين دلائهم ، وأن نعبر عن رأينا ، كما عبروا عن آرائهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

فمما أخذ عليه قوله فى مدح عرابة الأوسى — مخاطباً ناقته — وإن كان مما سبق إليه :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

فهم يرون أنه أساء مجازاة ناقته على إحسانها إليه، ويقولون: « كان ينبغى أن ينظر إليها مع استغنائه عنها . . .»[1] . ويروى الرواة أن أبا نواس عاب على الشماخ هذا المعنى وقال [2] : « ما أحسن الشماخ فى قوله : . . (البيت) ألا قال كما قال الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى[3]

قال : وقد كان قول الشماخ عندى عيباً فلما سمعت قول الفرزدق تبعته فقلت :

---

(١) الموشح : ٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٦٨ — ٦٩ . وانظر : الأغانى : ٨/١٠٢ .

(٣) ديوان الفرزدق : ٨٣٨ والبيتان فى مدح هشام بن عبد الملك .

فإذا المطى بنا بلغن محمدًا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطى الحصى فلها علينا حرمه وذمام

وقلت :

أقول لناقتى إذ قربتنى لقد أصبحت منى باليمين
فلم أجعلك للغربان نحلا ولا قلت: "اشرفى بدم الوتين"
حرمت على الأزمة والولايا وإعلاق الرحالة والوضين »[١]

كذلك حدثوا أن أبا تمام ، كان ممن عابوا على الشماخ قوله هذا ، ورووا له ذلك شعراً[٢] .

وهم يذكرون : أن أول من عاب هذا على الشماخ عرابة ممدوحه فإنه قال : « بئسما كافأتها به »[٣] . كما يذكرون أن عبد الملك بن مروان لما سمع قول الشماخ هذا قال : « بئست المكافأة كافأها ، حملت رحله ، وبلغته بغيته ، فجعل مكافأتها نحرها »[٤] .

وقد وقف إلى جانب الشماخ فى هذا المعنى أبو العباس المبرد[٥] الذى يقول : « وقد أحسن الشماخ كل الإحسان فى قوله : إذا بلغتنى . . . (البيت) يقول : لست أحتاج إلى أن أرحل إلى غيره . . »[٦] .

كما أحسن الاحتجاج للشماخ الآمدى[٧] ، فإنه أورد أبيات أبى نواس السابقة ثم قال[٨] : « والشماخ إنما قال : إذا بلغتنى ... (البيت) . لأنه رأى ناقته

---

(١) ديوان أبى نواس (الطبعة الأولى – المطبعة العمومية بمصر سنة ١٩٩٨) ص : ٦٤ – ٦٥ .
(٢) الموشح : ٦٩ . وانظر أيضا : الصناعتين : ١٥٨ . وخزانة الأدب : ١/٤٥٤ ، والأشباه والنظائر (الخالديان) مطبوع : ١/٢٢٣ .
(٣) الموشح : ٧٠ . وخزانة الأدب : ١/٤٥٤ .
(٤) الأغانى : ٨/١٠٣ .
(٥) هو : محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .
(٦) الكامل (الأزهرية) : ١/٨٩ .
(٧) هو : أبو القاسم الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ.
(٨) الموازنة بين أبى تمام والبحترى : ٤٠٤ – ٤٠٥ .

قد شفها السير وهزلها وأنضاها حتى دَبَرَتْ وذلك قوله :

إليك بعثتُ راحلتى تشكَّى كُلُوماً بعد مَحْفَدِها السَّمِين

فيقول : إذا بلغتنى عرابة فلا أبالى أن تهلكى ، وهذا ليس بدعاء عليها ، وإنما أراد : أنك إذا بلغتنيه فقد بلغت الغنى ، وأدركت العوض منك، فهذا معنى ، وقول أبى نواس معنى آخر ، وليس بضد لقول الشماخ ، وإنما يضاده قول المرأة التى قالت : يا رسول الله : نذرت إن بلغتنى ناقتى هذه إليك أن أنحرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبئس ما جزيتها؛لأن هذه قصدت أن جعلت جزاء التبليغ النحر ، فهذان المعنيان يتضادان، وقول الشماخ خارج عنهما فإنه أصل ثالث » .

وعد الشريشى [١] قول الشماخ هذا حسناً فى بابه (المدح) ووجه رأيه قائلا [٢] : «وتوجيه الحسن فى هذا المذهب على شنعة ظاهره : أنه لا يبالى بفقدها؛لأن الممدوح يحمله ويعطيه فهو فى غنى عنها . . »،وبعد أن يعرض وجهة نظر من عاب قول الشماخ ، يقول: « والمذهب الأحمد فى ذلك قول عبد الله بن رواحة حين خرج فى جيش « مؤتة [٣] » يخاطب ناقته :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلى ورائى » .

وإلى نحو من هذا يذهب أبو عبيد البكرى [٤] .

كذلك يعتبر ابن عبد ربه [٥] الشماخ محسناً فى هذا القول ، إلا أنه يرى أن قول أبى نواس السابق أحسن منه [٦].

---

(١) هو : أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ هـ .

(٢) شرح مقامات الحريرى : ٢/٣٦٤ – ٣٦٥ .

(٣) كانت سرية مؤتة سنة ٨ هـ وجهها الرسول (ص) إلى الغساسنة بالشام لقتلهم رسوله إلى هرقل .

(٤) سمط اللآلى : ١/٢١٨ .

(٥) هو : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ .

(٦) العقد الفريد : ٣/٤٢١ . وانظر أيضا : العمدة : ٢/٢٢٣ . وشرح المفصل: ٢/٣١ .

وهكذا انقسمت آراء هؤلاء النقاد حيال هذا المعنى الذى اختاره الشماخ ، وواضح أن سبب هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف نظرة كل منهم إلى البيت ، فمن عابه نظر إلى ظاهر معناه، بينما نظر من استحسنه،أو اعتذر عن الشاعر فيه إلى المراد منه لا إلى المعنى نفسه .

أما نحن فقد أشرنا إلى ما نراه فى هذا القول آنفاً،[١] ونزيد هنا،أن الأقرب إلى الذوق السليم فى هذا المقام (مقام المدح)،أن يكرم المادح مطيته التى أوصلته إلى الممدوح إكراماً له .

وقول الشماخ هذا، وإن لم يقصد به — قطعاً — الإساءة إلى الممدوح، إلا أنه أساء اختيار هذا المعنى الذى يخلو من الوفاء، ويتهم بمجافاة الذوق فى مقام المديح، ولعل لما فى طبع شاعرنا من البدواة أثر فى اختياره لهذا المعنى ، الذى ينقصه الذوق السليم .

ومما عيب عليه « القلب »[٢] فى قوله :

بانت سعادُ فنومُ العين مملولُ وكان من قِصرٍ من عَهْدها طول

فقد عابه ابن طباطبا فقال[٣] : « كان ينبغى أن يقول : وكان فى طول من عهدها قصر ، أو يقول : وصار فى قصر من عهدها [طول] » . وعده « من الأبيات التى قصر أصحابها عن الغايات التى أجروا إليها ، ولم يسدوا الخلل الواقع فيها معنى ولفظاً »[٤] .

كما عابه أسامة بن منقذ ، وأورده فى باب المخالفة لمذهب الشعراء ، وقال[٥] : « وهذا ردىء؛ لأنه استطال وقت وصالها » .

---

(١) راجع : ص ٢٧٨ من هذا الكتاب .

(٢) عده قدامة من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معاً وقال عنه : « هو أن يضطر الوزن الشاعر إلى إحالة المعنى وقلبه إلى خلاف ما قصد به» (نقد الشعر : ٢١٧)، ويقول ابن سنان : « ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوباً فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه » (سر الفصاحة : ١٠٦) .

(٣) عيار الشعر : ٩٧ وتبعه فى ذلك : المرزبانى فى الموشح : ٨٨ . وأبو هلال العسكرى فى : الصناعتين : ٦٩ وعده من فساد المعنى .

(٤) عيار الشعر : ٩٦ .

(٥) البديع فى نقد الشعر : ١٧٢ .

ومن أمثلة ذلك فى شعره أيضاً قوله يعتز بأبيه :

منه نُجِلتُ ولم يُوشَبْ به حَسَبِى لَيًّا كما عُصِبَ العِلْبَاءُ بالعود

قالوا : أراد كما عصب العود بالعلباء فقلب[١] .

على أن من القدماء من عد « القلب » من الضرورات المقبولة فى الشعر ، بل ذهب بعضهم إلى جوازه فى الكلام[٢] .

كذلك أنكر عليه ابن طباطبا قوله :

تخامصُ عن بَرْد الوشَاح إذا مشت تَخَامُص حافى الخيل فى الأَمعز الوَجِى

يريد : تخامص حافى الخيل الوجى فى الأمعز فقدم وأخر ، وعده من الأبيات المستكرهة الألفاظ . . التى يجب الاحتراز من مثلها[٣].

كما أنكر عليه علماء العربية قوله فى صفة العير :

له زَجَلٌ كأَنه صوتُ حادٍ إذا طلب الوَسِيقَةَ أَو زَميرُ

حيث حذف الواو فى « كأنه » وأبقى الضمة ، وهو ضعيف فى القياس ، قليل فى الاستعمال ، ووجه العيب أن ذلك ليس بلغة ، وإنما هو شذوذ للضرورة[٤] .

وقوله :

أَقامتْ على ربْعَيْهما جارتا صَفاً كُمَيْتَا الأَعالى جَوْنَتَا مُصْطلاهما

لإضافة الصفة المشبهة (جونتا) إلى معمولها (مصطلى) فى حالة إضافته إلى

---

(١) انظر : تأويل مشكل القرآن (ابن قتيبة) : ١٥٠ . وجمهرة اللغة : ١/٣١٦ . والوساطة بين المتنبى وخصومه : ٤٨٢ .

(٢) فى تفصيل ذلك ينظر : الضرائر (الألوسى) : ٢١٠ وما بعدها ، والوساطة : ٤٨٢ . والصاحبى فى فقه اللغة : ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) عيار الشعر : ٤٠ وما بعدها . وتبعه فى ذلك : المرزبانى ، فى الموشح : ٧١ . وأبو هلال العسكرى فى الصناعتين : ١٢٢ وعده من المعاظلة .

(٤) انظر : الخصائص : ١/١٢٧ ، ٣٧١ . وشرح شواهد الشافية : ٢٤٠ ، والكتاب لسيبويه : ١/١١ وهامشه فى شرح الشواهد للأعلم الشنتمرى ، والضرائر (الألوسى) : ١١ وما بعدها . وقد روى البيت : « له زجل تقول : أصوت حاد » وعليه فلا ضرورة .

ضمير موصوفه (جارتا صفا) وهذا عندهم خاص بالضرورة(١) .

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الضرورات فى شعره قوله فى العير والأتان :

وإن يُلْقِيا شَأْوًا بأَرضٍ هَوَى لهُ مُفَرّضُ أَطراف الذِّراعين أَفحَجِ

والقافية مكسورة ، وهذا هو ما يسمونه « بالإقواء »(٢) ويعدونه من الإخلال بتناسب القوافى(٣) .

والإقواء فى شعره نادر على غير عادة الأعراب فى شعرهم ، ولعل يد التهذيب قد تناولته ، وأصلحت بعضاً مما كان فيه من إقواء على مر الزمان .

على أننا نذهب إلى ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس من عد الإقواء فى الشعر خطأ نحويًّا لا شعريًّا ، وإلى ما رجحه من أن الشاعر كان ينطق بحركة القافية موافقة لحركة القوافى السابقة واللاحقة ، ومن ثم فهو لم يخطئ فى الموسيقى وإنما أخطأ فى النحو ، واحتمال خطأ الشاعر القديم فى قواعد النحو أقرب إلى العقل من احتمال خطئه فى أبسط قواعد الموسيقى الشعرية ، وعلى هذا فما يسمى بالإقواء لا وجود له فى الشعر العربى . .(٤) .

ويأخذ عليه قدامة ما يسميه « بالتجميع » ويعده من عيوب القافية(٥) وذلك فى قوله فى مطلع إحدى قصائده :

لمن منزلٌ عافٍ ورسم منازل عفتْ بعد عهد العاهدين رياضُها

---

(١) انظر : الكتاب (لسيبويه) : ١٢٠/١ وهامشه فى شرح الشواهد للأعلم الشنتمرى . والضرائر (الألوسى) : ٨١ وما بعدها ،وكذلك : ٢٦٤ من نفس المرجع . والصناعتين : ١١٢ . وقد تأول بعضهم الضمير فى (مصطلاهما) وجعله عائداً على « الأعالى » لأنها مثناة فى المعنى ، وعليه فلا ضرورة (انظر : المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية) : ٥٨٩/٣ .

(٢) وهو اختلاف القوافى من حيث حركة الإعراب ، وفيه قول آخر (انظر : الشعر والشعراء : ٤٢/١ . واللسان : (قوا) والقبيح منه الاختلاف بالفتح مع كون الروى بالكسر أو بالضم ، وأخف منه قبحاً ، وأكثر شيوعاً فى شعر الأوائل الإقواء بالكسر مع القافية المضمومة ، أو بالعكس (انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ٣٠/١ – ٣١) .

(٣) سر الفصاحة : ١٧٦ .

(٤) موسيقى الشعر : ٢٥٩ – ٢٦٠ .

(٥) نقد الشعر : ١٨١ . والتجميع – كما يقول قدامة – أن تكون قافية المصراع الأول من البيت الأول على روى متهيء لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه فتأتى بخلافه .

وقد عد بعضهم هذا من أسهل عيوب القوافى ، وأقربها إلى الجواز والصحة[١] .

ويورد البغدادى قول محمد بن يزيد الأموى :

فلا قدرت عليك يدُ الليالى ولا وجدتْ إليك لها سبيلا

ويرى أن فيه تنافراً بسبب كثرة الضمائر ثم يقول [٢] : « وقد جاء فى بيت للشماخ ما هو أنفر من هذا ، وهو قوله :

وكنتُ إذا لاقيتُها كان سِرُّنَا لنا بيننا مثلَ الشِّواء المُلَهْوَجِ

وقد روى هذا البيت « وما بيننا » بدل « لنا بيننا » فلا تنافر على هذه الرواية[٣] .

وعاب الأصمعى على الشماخ قوله فى الناقة :

فنعم المُعْتَرَى رحلتْ إليه رَحى حَيْزُومِها كرحى الطَّحين

وقال : السعدانة توصف بالصغر[٤] ، كما أخذه عليه ابن طباطبا وقال[٥] : « وإنما توصف النجائب بصغر الكركرة ولطف الخف » . وعقب ابن رشيق على قول الأصمعى السابق بقوله[٦] : « ظنه يصفها بالكبر ، وهو عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير » .

كذلك أنكر عليه ابن طباطبا قوله :

وأعددت للساقين والرِّجل والنَّسَا لجاماً وسَرْجاً فوق أَعْوَجَ مختال

وقال[٧] : « وإنما يلجم الشدقان لا الساقان » .

هذا ما أخذه القدماء على الشماخ فى شعره ، وهو فى جملته من الهنات الهينات ، فأكثره من قبيل الضرورات التى لم يسلم منها الفحول فى شعرهم ، ولم تغض من شأنهم ، ومن القدماء من أعطى للشعراء حرية واسعة فى ارتكاب الضرورات ، دون

---

(١) سر الفصاحة : ١٧٩ .

(٢) شرح شواهد المغنى (البغدادى) مخطوط : ٢/١١٥ .

(٣) انظر : روايات البيت فى هامش الديوان : ٢/١٥ .

(٤) الصناعتين : ٧٦ .

(٥) عيار الشعر : ٩٦ ، وتبعه فى ذلك المرزبانى فى الموشح : ٨٧ .

(٦) العمدة : ٢/١٩١ .

(٧) عيار الشعر : ٩٧ ، وتبعه المرزبانى فى الموشح : ٨٧ .

أن يعاب ذلك عليهم ، يقول الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠ هـ أوسنة ١٧٥ هـ) : « الشعراء أمراء الكلام ، يصرفونه أنى شاءوا ، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده . . . »[١] إلخ .

وحسب الشماخ ألا يكون فى شعره إلا هذه الهنات اليسيرة ، التى يلتمس له العذر فيها لبداوته ، وقوله الشعر بديهة وارتجالا .

* * *

٣ ـ منزلته فى موكب الشعر القديم

عرف كثير من الرواة ، والنقاد ، والشعراء القدماء شعر الشماخ ، وكانت لهم فيه نظرات أوردنا بعضاً منها فيما سبق ، على أن منهم من لم يقف عند هذه النظرات الجزئية فى شعره ، بل تعداها إلى الحكم على شاعريته فى شعره عامة ، أو فى بعض فنونه خاصة . وعنى بعضهم ببيان منزلته الأدبية بين الشعراء الجاهليين والمخضرمين .

وفيما يلى بعض ما قالوه فى ذلك :

سئل الأصمعى عن رأيه فى شعراء جاهليين ومخضرمين ، وكان ممن سئل عنهم الشماخ ، فقال عنه الأصمعى : فحل[٢] .

ويقول ابن الكلبى[٣] : « كان الشماخ أوصف الناس للحمير والقوس »[٤] .

وروى أبو الفرج[٥] بسنده عن ابن الكلبى قال :[٦] « أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعر الشماخ فى صفة الحمير فقال : ما أوصفه لها ، إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً » !!

---

(١) زهر الآداب (الحصرى) : ٤/٥١ .

(٢) فحول الشعراء (الأصمعى) : ص ٢٠ .

(٣) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ أو سنة ٢٠٦ هـ .

(٤) الإصابة : ٣/٢١١ .

(٥) هو : على بن الحسين الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ أوسنة ٣٥٧ هـ .

(٦) الأغانى : ٨/٩٩ هـ .

وعن الشماخ يقول ابن قتيبة : « . . وهو من أوصف الشعراء للقوس والحمر »[١] ويقول عنه أيضاً : « وأرجز الناس على بديهة »[٢] .

ويقول ابن رشيق : « . . أما الحمر الوحشية والقسى فأوصف الناس لها الشماخ ، شهد له بذلك الحطيئة والفرزدق »[٣] .

وروى الجاحظ[٤] ، أبياتاً للشماخ من قصيدته الزائية ثم قال : « ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم »[٥] .

ويروى عن أبى عبيدة أنه قال : « قالوا : لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا : يا أبا مُليْكة : أوصِ : فقال : ويل للشعر من رواية السوء ، قالوا : أوصِ — رحمك الله — يا حطيئ ، قال : من الذى يقول :

إذا أَبْيَض الرامُون عنها ترنَّمت ترنُّمَ ثَكْلى أَوجعتْها الجنائزُ

قالوا : الشماخ ، قال : أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب »[٦] وفى رواية : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان »[٧] وفى أخرى : « . . وقالوا له : قل لا إله إلا الله ، قال : أشهد أن الشماخ أشعر غطفان »[٨] .

ونحب أن نقف قليلا عند رواية أبى عبيدة السابقة : فلعل الحطيئة قصد ببيت الشماخ الذى ذكره الإشارة إلى قصيدته الزائية بأكملها ، وأن الشماخ كان أشعر العرب — فى رأيه — أو غطفان من أجلها .

ويرى الدكتور طه الحاجرى : أن الحطيئة لم يرد أنه شاعر العرب فى مطلق شعره بل فى جزئية بعينها ، فالشماخ أشعر العرب فى تلك الصورة التى صور بها قوسه ، والتى بلغ فيها غاية الجودة ومنتهى الإبداع ، فهو فيها أشعر العرب ، كما

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٢٧٥ .
(٢) نفس المصدر : ١/٢٧٦ وانظر أيضا : الأغانى : ٨/٩٩ .
(٣) العمدة ٢١/٢٢٧ .
(٤) هو : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .
(٥) الحيوان : ٥/٨٠-٨١ .
(٦) الأغانى : ٢/٥٦ — ٥٧ .
(٧) الأغانى : ٨/٩٩ .
(٨) ديوان المعانى : ١/٤٠ .

يكون المصور أو المثال فى صورة بعينها . أو تمثال بعينه بحيث لا يذكر إلا به ، إذ كان وحده مجلى عبقريته ومظهر أصالته دون غيره [١] . .

وسواء أقصد الحطيئة تلك الصورة فقط أم القصيدة بأكملها ، فلا شك أن فى قوله هذا إسرافاً فى التعميم ؛ إذ يقوم على الوقوف عند جزئية ، وتحكيم الذوق فيها ، ثم القفز منها إلى هذا الحكم العام الذى يجعل من الشاعر أشعر العرب لبيت قاله أو قصيدة ، وإننا لنجد الكثير من أمثلة هذا التعميم فى الحكم على الشعر والشعراء مبثوثة فى كتب الأدب القديمة ، منسوبة إلى قائليها من الشعراء وغير الشعراء ، والتى ترجع إلى ما يسمى « بالنقد الذوقى » الذى لا يقوم على منهج علمى ، وتعليل مفصل للأحكام [٢] .

ولعل مما يدل على خطأ مثل هذا الحكم العام على شاعرية الشاعر ؛ لإجادته فى بيت أو قصيدة ، هذه الرواية الطريفة التى تقول : « . . وأنشد مروان بن أبى حفصة يوماً جماعةً من الشعراء وهو يقول فى واحد بعد واحد : هذا أشعر الناس ، فلما كثر ذلك عليه قال : الناس أشعر الناس »[٣] !!

فإذا انتقلنا إلى النقاد المتخصصين قديماً فى نقد الشعر ، والحكم على الشعراء ، وجدنا ابن سلام [٤] يعد الشماخ فى الطبقة الثالثة من طبقات فحول الجاهلية ، ويقرنه بالنابغة الجعدى ، وأبى ذؤيب الهذلى ، ولبيد بن ربيعة[٥] . ويقول عنه : « فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر كلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً »[٦] .

---

(١) فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية (مطبعة رويال بالإسكندرية سنة ١٩٥٣) : ص ٦٩

(٢) انظر : النقد المنهجى عند العرب : ١٦ – ١٧ .

(٣) العمدة : ١/٥٦ .

(٤) هو : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ أو سنة ٢٣٢ هـ .

(٥) طبقات فحول الشعراء : ١٠٣ . لم يعد ابن سلام المخضرمين طبقة قائمة بنفسها بل نزلهم منازلهم من طبقات أهل الجاهلية وطبقات أهل الإسلام (انظر : مقدمة طبقات فحول الشعراء لمحققة : ص ٢٠)

(٦) طبقات فحول الشعراء : ١١٠ . متون الشعر : يراد بها ألفاظه وعباراته ، وصياغته ، وأسر الكلام : بناؤه وتركيبه . يعنى : أنه غير مسترخ ، ولا ضعيف متخالف ، الكزازة : اليبس والتقبض يريد : أنه قليل الماء ، غير لين ولا سهل .

ومن المعروف أن الأسس التى استند إليها ابن سلام فى وضع الشعراء فى طبقاتهم عنده هى :

١ ــ كثرة شعر الشاعر .

٢ ــ مدى معالجته للفنون المختلفة .

٣ ــ الجودة الفنية .

وإن كان قد غلَّب الكثرة على الجودة ، وفضل تعدد الأغراض على الإجادة فى باب واحد[١] .

ولعل فى هذا ما يفسر تأخر الشماخ عند ابن سلام عن أوس بن حجر وكعب ابن زهير والحطيئة ــ وهم جميعاً فى الطبقة الثانية عنده ــ مع أنه لا يقل عنهم فى جزالة الشعر وقوة الشاعرية ، مع امتيازه عليهم بحسن البديهة ؛ ذلك أن الشماخ قد غلب عليه الوصف ــ وخاصة وصف الحمر والناقة ــ حتى كاد يذهب بمعظم شعره ، بينما قل تصرفه فى الفنون الأخرى .

وشبيه بالشماخ فى هذا ذو الرمة ، فقد حدث ابن سلام قال[٢] : « مر الفرزدق بذى الرمة وهو ينشد :

أَمَنْزِلَتَىْ مَيٍّ سلام عليكما هل الأَزْمُن اللائى مَضَيْن رواجعُ

فوقف حتى فرغ منها ، فقال : كيف ترى يا أبا فراس ؟ قال : أرى خيراً ، قال : فما لى لا أعد فى الفحول ؟ قال : يمنعك عن ذلك صفة الصحارى وأبعار الإبل . . . » يريد : أنه اختص معظم شعره بذلك .

وقد يضاف إلى هذا ما فطن إليه ابن سلام من صعوبة منطق الشماخ ، وشدة متون شعره ، وكزازته .

هذه هى بعض أقوال القدماء فى الشماخ ، وقيمة شعره ، ومنزلته الأدبية ، ونحن نستطيع بعد ما قدمناه من الدراسة ، والموازنة ، أن نتفق معهم ، فيما ذكروه

---

(١) انظر : النقد المنهجى عند العرب : ٢٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٤٦٨ . والقصيدة فى ديوان ذى الرمة ، وهى القصيدة : ٤٥ : ص : ٣٣١ ــ ٣٤١ .

من اعتبار الشماخ أجود من وصف الحمر الوحشية والقوس ، وإن كنا لا نذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم من اعتباره أشعر العرب ، أو أشعر غطفان ، أو نحو ذلك مما ذكرنا رأينا فيه آنفاً .

أما وضع الشماخ فى الطبقة الثالثة بين فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، فأمر لا يتيسر لنا الحكم عليه الآن ؛ فإن هذا الحكم لكى يكون قويماً وأصيلا ، يتطلب — على الأقل — أن نعتمد على دراسة سابقة لكل واحد من هؤلاء الفحول ، الذين قدمهم ابن سلام على الشماخ ، أو جعلهم معه فى طبقة واحدة ، حتى نستطيع أن ننزل الشماخ منزلته بينهم ، أو أن نبين مدى إنصاف ابن سلام فى الحكم على الشماخ ، وإنزاله حيث أنزله فى طبقاته .

ولما كان أكثر هؤلاء الشعراء لم تتناولهم الدراسة المتخصصة بعد ، فإننا لا نستطيع القطع برأى فى ذلك ، إلا أنه يمكن القول إجمالا بأن الشماخ لو كان قد وفق إلى تيسير لغة شعره ، وأتيحت له من الظروف ما دفعه إلى التصرف فى الفنون الأخرى ، كما تصرف فى فن الوصف ، مع ما رزق به من شاعرية قوية متدفقة ، وأسلوب رصين ، وخيال بديع ، وبديهة حسنة ، لكان له فى دولة الشعر القديم شأن آخر عند ابن سلام ، وعند غير ابن سلام .

هذا ، ولا نعلم أحداً من الباحثين المحدثين : رأى رأياً فى الحكم على الشماخ غير ما ذكره القدماء . فقد اقتصر من تعرض منهم لذكر الشماخ على ترديد ما سبق أن سقناه من أقوال الرواة والنقاد القدامى .